طعم الكرز

قصص قصيرة

أحمد المديني

طعم الكرَز

قصص قصيرة

تأليف
أحمد المديني

هنـــداوي

طعم الكرَز

أحمد المديني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسدور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٧ ٣٤٢٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٢.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور أحمد المديني.

المحتويات

سطيحة راشيل، وأحـ...	٧
هروب الجسد	٩
عندما ذهبت إلى البحر	١٥
أحدب الرباط	٢٣
شوكة في الحلق	٢٩
على مرمى حجر	٣٥
ضياع في تونس	٤١
Strangers in The Night	٤٧
اليوم الثالث قبل الأخير	٥٥
عين، مثل عصا!	٦٣
القاعة والحديقة الحديقة والقاعة	٦٩
الشعب يريد إسقاط ... بوطاقية!	٧٩
النشرة الأخيرة	٨٧
على بلد المحبوب ودِّيني ...	٩٣
ملاك في الحديقة	١٠١
طعم الكرز	١٠٩

سطيحة راشيل، وأح...

مثل قط ينطُّ السلالم، درجة، درجة، وهي خلفه تارة، وقدامه أخرى، مثل قطة تنطُّ درجة، درجة ... السلالم المؤدية إلى السطح درجات معدودة، تصعدها لتدلِف بعدها مباشرة إلى سطح البيت. البيت السفلي ذو الحجرات الأربع، متوسط العُلوِّ، لذا قلتُ لها دائمًا حين تطلب مني الحضور إلى بيتنا، والصعود خاصة إلى السطيحة لنلعب، أن علينا أن ننتبه كثيرًا ونحن نصعد الدَّرج، فهو صعيب، صعيب، يا ...

كانت تحضر غالبًا في العصر، والدار هامدة؛ أمي راقدة أو في إحدى زياراتها، وأبي يحكم في المحكمة، والخادمة تصقل الأواني، وأنا أبقى سيد المكان، وسيد اللعبة، أيضًا. تظل حذِرة، وإن تصنَّعت اللامبالاة، هي التي تلحُّ على مطلب اللعب، وكلما وجدنا الغفلة، إلا في يوم السبت المحرم عليها بتاتًا. أبوها الإسكافي يعود متأخرًا من ورشته، وأمها دينا تبقى مُكبَّة على ماكينة الخياطة إلى أن يعود زوجها نسيم. تُغافل البنت أمها، فتتسلَّل منفلتة من الباب الخارجي، نصف الموارب دائمًا.

لم تكن لي ساعة، إلا نبض قلبي يدق وكأنه يتحسس وقت مغادرتها، ووشك وصولها، وحين يكاد يطفر من جوفي أكون واقفًا بالباب فأراها مُقبِلة من نهاية الزقاق ركضًا، إلى أن تضع يدها في يدي، فأسحبها عابرَين السطوان، عند نهايته مدخل السلالم، مثل قط أنط فوقها، درجة، درجة، وهي من خلفي تارة، وقدامي أخرى، مثل قطة تنط درجة، درجة.

حين نصبح في السطيحة، يدها في يدي، ولا نجرؤ أن ننظر إلى بعضنا إلا خلسة، إذا تضامَّت نظراتنا تورَّد وجهها، وصعد قلبي إلى جوفي، والغميضة هي لعبتنا، ومن فضح صاحبه قبل الآخر، فاز! فاز بقُبلة أطبعها على خدها أو تضعها على جبيني، وأنا أريد أن أضمَّها، ولا أعرف ماذا أفعل بها، لا أعرف!

بعد أعوام، وكان نسيم ودينا قد رحلا من القصبة، مع مَن رحلوا من الدار البيضاء إلى تلك البلاد التي كانت عربية، ومعهما رحلت ابنتهما را... بعد عُمرٍ كنت أهمُّ بدخول متاجر «ليغاليري لافاييت» بباريس، صادفتني امرأة، لا أرشق ولا أجمل. بين دخولها وخروجي صُعقنا في منتصف العبور؛ عيناي في عينيها، في عيني، دقَّ قلبي بذلك النبض القديم. خلتها هي، فهل خالتني أنا هو؟ في منتصف الطريق بقينا واقفَين في زمن كأنه دهرٌ ستتلوه دهور، يدُها إليها، ويدي مرتعشة غير ممدودة، إلا كلمة واحدة فلتت، مني، أم منها، تكهرب لها جسد المرأة الأرض، الأجمل.

– هل أنتِ راشيل ...؟!

– وهل أنتَ أحـ...؟!

هروب الجسد

١

ليست المرة الأولى التي يجد نفسه فيها أمام هذه الحالة، أو يعتريه مثل هذا الإحساس، فلقد تكرر ذلك مرات لم يعُد يعدُّها، ولا يشغل باله بها، أو في الحقيقة قليلًا، منها هذه المرة بالذات، وهو في اضطراب بيِّن، لا يعرف من أين يبدأ، ولا أين ينتهي. ماذا يأخذ، وأي شيء ينبغي أن يتخفَّف منه في سفرٍ أصبح عنده اعتياديًّا، معلومًا، مختلفًا تمامًا عن أسفار جميع الناس، بمشاغلهم واحتياطاتهم التي لا تُحصى.

٢

ومع ذلك يجب أن يعترف، فهذه المرة تختلف نوعًا ما عن سابقاتها بدرجاتٍ، وانفعالُه بها أقلقه حدًّا لم يعهده منه. عملُه ما فرض عليه هذا الوضع؛ أي لم يكن له أي خيارٍ فيه من البداية، وحين قبِله لم يقدِّر العواقب، ظن أنه سيناسبه وسيغبطه عليه كثير من العاملين في المؤسسة: أووه، إنه محظوظ، سيعمل في الخارج، سيعيش هناك وتتحسَّن حياته، سيزيد راتبه، سيتعرَّف على عالمٍ جديدٍ، وبشرٍ آخرين، مختلفين عنا حتمًا، لن يحس بالملل، ولا هو سيتقلب في روتين العمل، مثلنا نحن هنا نقوم بعملٍ واحدٍ دائمًا، تقريبًا، وبنايتنا هي هي، والطريق بين مسكننا وعملنا، أووف! أما هو، فما أسعده، أووه!

٣

كان على الشركة التي فتحت فرعًا لها في باريس للتنسيق مع الشركات الفرنسية مباشرة أن توفِد مَن يمثِّلها، وحرص المدير نفسُه على تجنُّب الصراع والمنافسة البغيضة بين أطر مؤسسته، وتجنُّب المفاضلة بينهم في كفاءاتهم، إنهم جميعًا أكفاء عنده، ولو بنسبة متفاوتة، ولو أوفد واحدًا على حساب الباقين فسيتعطل الشغل لا محالة؛ الغيرة قاتلة، الأنسب أن يُجري بينهم قرعة، والمحظوظ سيفوز. هكذا طلع سهمه، وهو مَن يعيش هذه الحالة الغامضة، التي باتت تشبه مرضًا ذا أعراض غريبة، أصبح المحظوظ، رغم أنه لا يستطيع أن يقنع أحدًا بأنه في وضعٍ لا يُحسد عليه، سيقولون — لا محالة — إنه مجنون، كالمجنون، وماذا لو وصف لهم حالتَه، إنما كيف؟

٤

في البداية غمره فرحٌ جامح لم يحس بمثلِه قبل، لا يضاهيه فرح كل نجاحات امتحاناته الدراسية، ولا المناسبات التي أوتيها في حياته، وتلفَّت حوله فوجد نفسه محسودًا فجأة، الجميع حوله يتهامسون إنه ذاهب إلى باريس، إنه ممثِّل الشركة في باريس، راتبه كذا، تعويض سكنه كذا، وسيعيش ملكًا، فعنده مخصصات إضافية للتمثيل، وهو فوق هذا، تتهامس السكرتيرات، أعزب، كل واحدة تحس بفجيعة أنها لم تحط عنقه بما يسميه بعبارته: «حبل المشنقة» الذي يحيط في نظره بكل الأزواج، ويزهق أرواحهم وهم شبه أحياء! هذا المنصوري لا شك مَرْضي الوالدين، أمه تدعو له عند كل الأولياء، يجهلون أنها رحلت عن عالمهم، لا شك!

٥

طبعًا دعت له مليون مرة قبل أن ترحل عن هذا العالم البغيض، وإلا كيف يتاح له أن يتنقَّل — بهناء — بين باريس والدار البيضاء، بانتظامٍ، كأنه سفير، لم يتأخروا بمجرد تعيينه عن تلقيبه بالسفير فوق العادة، لا سخرية، بل حسدًا من زميلٍ تحتاج الشركة لحضوره إليها في مقرِّها مرة في الشهر، وراتبه خلالئذٍ مدفوع، وهكذا فلن يحسَّ بأي غربة، لن ينقطع عن جذوره، هو خارج بلاده وداخلها، وهو يحلق دائمًا، هكذا يقولون، يسكن طائرة، ما أسعده!

٦

وما أدراهم بمقامه أو بغربته، ماذا يعرف هؤلاء القوم المحبوسون في قماقم رواتبهم عما يمكن أن يضطرم في النفس ما دامت نظرتهم إلى باريس لا تختلف عن النظر إلى غانية مشتهاة تنفِّس كبتهم للحين، وللحين فقط. وهو يعرف هذه الرءوس المغربية والعربية عامة، الخاوية، قبل أن تحط بهذه المدينة، وعندما تصل إليها ولهاثهم فيها وهم يملئُون الأكياس، وبعد العودة، وبين مطارَين لا ينفك يتفحَّص وجوههم وسلوكهم، وفي الطائرات بطرهم وحقائبهم، ينزلون كأنهم جدران مصبوغة وهم يزفرون، ثم يتبخر زهوهم في انتظار الرحلة القادمة!

٧

ليعترف بأنه تباهى على أقرانه، وإن حافظ على تعامله معهم كي لا يزيد من غيظهم، ففي دخيلته ورأسه كان عالم جديد يُبنى، رآه يتشيَّد كل يوم، تنهض لِبناته من ساعة إلى أخرى، رغم أنه لم يكن يملك ما يكفي من الوضوح ليقول هل إنه ينفصل تدريجيًّا عن محيطه الأصلي، هل هو سيزدريه، وينجذب أكثر فأكثر إلى هذا العالم الباهر الذي اسمه باريس، صعبٌ عليه أن يستوعبه مهما فعل، أم أنه ملتصق بأرضه، بأولاد البلاد كما يسمونهم في الخارج، وهم يحنون دائمًا إلى أطباق أمهاتهم، والدريبات حيث وُلِدوا ولعبوا، ولا يتوقفون عن الحنين حتى إلى بؤسهم، فلا يرون ما هم فيه، ولا الحياة كيف تبدَّلت، تتبدَّل.

٨

ليعترف أنه مع مرور الوقت راح يتبدَّل، لا يستطيع أن يجزم هل نحو الأفضل أم إلى الأسوأ، وهذا ليس مجرد كليشي للاستعمال، الغبي والعنيد المكابر وحدهما يظلَّان جامدين، وهو تغيَّر، أجل تغيَّر، لا يقصد مأكلَه وملبَسه وأسلوبَ حياته عامة، خاصة وهو يعيش في محيطٍ لا يتوقف فيه الجديد، ربما مخه، شعوره، نظرته اليومية للدنيا، ماذا أيضًا؟ أووف، كثير، إنما الأهم هو ذلك الشيء الذي يكاد لا يعرفه، أو كيف يسميه، أحيانًا يشرد في عمله كما في الشارع، فيكلم ذاته مُسائلها: مَن أنت؟ ماذا تريد مني؟ ما الذي حدث أو يحدث لي بالضبط؟ ثم ما يلبث أن يعي أن أي جوابٍ لن يأتي، فيمسك رأسه كي لا يسقط في الشارع.

٩

والأهم من كل ما مضى أن يعترف بالحالة المضطربة التي يمسي عليها في كل مرة سينتقل فيها من ... إلى ... ثم عودًا على بدء إلى ... في الاتجاهين كليهما لا يحتاج سفرُه عادة إلى استعدادٍ كبير، فعدا الأوراق التقنية لعمله لا يحتاج إلى أي استعدادٍ استثنائي، وخاصة وهو ذاهب من باريس إلى مقر الشركة في الدار البيضاء، فهنا ما زال يحتفظ بشقة صغيرة تضم أثاثًا ودولاب ملابس، وخزانة كتب صغيرة مع تسجيلات غنائية، والضروري جدًّا للمطبخ. وعنده دائمًا كمية من المعلبات تكفي لطعامه، يقضي — بعد مهمته — أغلب الوقت في هذه الشقة في انتظار العودة من حيث جاء، من غير أن يفكر بالضرورة في وقتها وما سيتبعها.

١٠

ليعترف بأن عودته هي التي تزرع الاضطراب في تنقُّله، تجعله، كما يقول لنفسه، في حالة غير طبيعية، منها أنه يحس كأنه ينظر، للمرة الأولى، لما حوله: إلى بيته بمحتوياته، إلى الشارع من الشرفة، إلى الغادين والرائحين، يتطلع إلى قاماتهم ووجوههم كمن يكتشفهم للمرة الأولى، وصولًا إلى وضعه هو بالذات: وجهُه إذ يتفحَّصه في المرآة، أطرافه يتحسَّسها، جسمه يكرر تدقيق وزنه في الميزان، وأخيرًا الانتباه إلى حاجاتٍ متفرقة بين ثيابٍ وكُتب وأوراق مبعثرة، يعيد ترتيبها، يرغب في تنظيمها، يظن أنه سيفعل ذلك للمرة الأخيرة، ثم يسأل: لماذا؟

١١

حين أعيته الحيلة، ولم يعثر وحده على الجواب حمل سؤاله إلى الطبيب النفسي، جازف وتوجَّه إليه للمرة الأولى وهو يريد أن يحقق هدفين: محاولة للانتصار على خوفه، وعجزه، أيضًا، وانتصار للعلم، فكم سمع أن الطب النفسي قادر على علاج حالاتٍ مستعصية، ربما منها حالته. استرخى فوق الأريكة، وأطلق لسانه: تكلمْ على سجيتك، يمكنكَ إن شئت أن تسرد ما تعيش وما تحلم به. ولم يجد في مطلب الطبيب جديدًا عليه، فهو متعود على السرد، كثيرًا ما يفعل هذا في رأسه، وهي عنده الطريقة المُثلى لتحمُّل الرتابة، كل شيء يتعدد، حتى هو يصبح أكثر من واحدٍ، أنت على عتبة السكيزوفرينيا، لم ينبس الطبيب بالكلمة، وإنما قرأها في عينيه، وأضاف: خفِّف من السفر، قبل أن يزيد حكمة سقراط: و«اعرف نفسك بنفسك»!

١٢

ليعترف بأن أزمته بلغت ذروتها في الرحلة الأخيرة من الدار البيضاء إلى باريس. في هذه المرة لم يعِ جيدًا هل هي رحلة ذهاب أم إياب، وشعر بارتباكٍ شديدٍ يومين قبل السفر. قام يتفقد دولاب ثيابه، يبحث فيها عما سيأخذ وسيترك. بعد وقتٍ وجيزٍ فزَّ، انتبه أنه في غير حاجة إليها؛ إذ تكفيه حقيبة يدٍ صغيرة يلم فيها أغراضًا صغيرة بلا أهمية تقريبًا، حتى إن الجمارك يستغربون دائمًا من هذا المسافر بلا متاعٍ، أحيانًا تنظر إليه شُرطية المراقبة بريبة وهي تسأل: أهذا كل ما عندك؟ ليردَّ عليها بنظرة استغراب دافعًا قامته إليها: هاه، فتِّشيني!

١٣

يومٌ واحدٌ بقي له قبل السفر قضاه في تشوشٍ كاملٍ. كان قد أنهى معاملاته في الشركة، وعاد إلى البيت معولًا ألا يغادره إلا إلى المطار، وبدل أن يستريح — كما نوى — قام من جديدٍ يتفقد ثيابه في الدولاب، بعثر قمصانًا وربطات وجوارب، جرَّب سترة ورماها، فتح حقيبة اليد، ونظر إلى جوفها الفارغ، ملأها وعاد يفرغها للمرة كم، جلس قبالة التلفزة، أطفأ زرَّها، جلب كتابًا، كتابَين، تخلَّى عنهما، هو ذاهب إلى عاصمة الكتاب، كلما جلس عاد يجمع الوقفة، وفي كل دقيقة يسأل ماذا ينقصه، لا يحتاج إلى أي غرضٍ لهذه السفرة، وربما يحتاج إلى كل شيء، ما الذي يحرص على جمعه ولا يعرفه؟ ماذا نسي؟ ماذا ينبغي أن يتذكر، أووف؟

١٤

قبل أن يغلق الباب خلفه مغادرًا إلى المطار طاف بسرعة في الشقة متفحصًا، وفي رأسه يتلولب السؤال: ماذا نسيت؟ يدور مكرورًا إلى ما لا نهاية كأسطوانة مشروخة، وسمْعُه وانتباهُه كله إليه فلا يبالي بالجمركي في استغرابه المعتاد، ولا الشُّرطية المرصودة له في ريبتها الساذجة، ولا المسافرين يصرون على التدافع والازدحام عند بوابة المغادرة قبل إعلان موعد الإقلاع، يتعجب أهمْ سيسافرون أم هاربون من الجحيم، أم لعلَّه المتكاسل هنا، المتردد بين الرحيل أو البقاء، ربما شأنٌ آخر يعرفه يشدُّه إلى هذه الأرض، أم لعلَّه نسي الأهم؟ ماذا؟

١٥

في مطار أورلي دفع جواز سفره، ووضعه في فتحة الحاجز الزجاجي الفاصل بينه وشُرطي الحدود، ووقف ينتظر أن يدمغ هذا على الجواز. صفٌّ طويلٌ وراءه والشرطي يقلِّب نظره بين الوثيقة تحت بصره والشخص قبالته، ويقلِّب، ويعيد، ويراه يحدق فيه باستغرابٍ، أولًا، باستنكارٍ، ثانيًا، همهمات تعلو من خلفه، ثالثًا، الشُّرطي يحرك يديه بعصبية، رابعًا، وهو يتساءل هل سيمنعونه من الدخول إلى فرنسا وهو في وضعٍ قانوني، خامسًا، وسادسًا وسابعًا يسمع الشرطي يصرخ: هل تمزح يا مسيو؟ فرنسا لا يدخلها الأشباح! مَن أنت؟ أين جسدك مسيو؟ مَن أنت للمرة الأخيرة؟ وهنا تحسَّس نفسه فألفى أنه بلا أعضاء، أنه واقفٌ في الفراغ، وأدرك أخيرًا ... ظن أنه أدرك ماذا نسي هناك!

عندما ذهبت إلى البحر

١

اليوم هو الأحد ... لا شك عندي في ذلك، فاليومية تؤكد، فتنزع كلَّ شكٍّ بات يعتريني في الأيام الأخيرة، عائد ربما لاضطرابٍ في ذاكرتي أو لتشوُّش لم أحدِّد مصدره بعد. هو يوم أحد من شهر غشت الحار، ومنذ يومين ارتفعت درجات الحرارة بقوة قياسًا بشهر يوليوز السابق، وقد شعرت أمس باحترارٍ شديدٍ لجسدي، ولم أطمئن بأني لستُ محمومًا إلا لما سمعت في نشرة الأخبار الصباحية التقرير اليومي لحالة الطقس الذي يقدمه الخبير في الأرصاد الجوية السيد بلعوشي، سجَّل فيه أن الأيام القادمة ستشهد ارتفاعًا في درجات الحرارة يشمل مختلف أرجاء البلاد، خاصة مناطق الداخل والساحل الغربي، من طنجة إلى الرباط.

٢

كنت في الرباط، قبيل الظهيرة أحسست بحرٍّ شديد، والشقة تلتهب جدرانها، وجسمي ينزُّ بالعرق. قلت سأفعلها، قلت سأفعل ككل الناس، الأغنياء والفقراء، فأنا كيفما كانت نفسيتي، أو نظرتي إلى مَن حولي ومجتمعي، أنتمي بز مني إلى هذا الخلق، ولا أستطيع أن أسلخ جلدي مهما فعلت، رغم أن نظرة الجيران، وزملائي في العمل، والحسين الذي أتبضع من بقالته، إضافة إلى عيسى بائع العصير المقوي للباه؛ كل هؤلاء، وآخرون لا يخفون ارتيابهم مني، وهذا ربما لسببين: أولًا، لأني أعيش وحيدًا، أي أعزب، مما يتنافى في نظرهم مع الإسلام. وثانيًا، لأني أحتجُّ على كل شيء، لأي سببٍ، وهذا قد يجلب المشاكل مع المخزن، مع السلطة.

٣

قلت سأفعلها. سأذهب إلى البحر لأتبرد مع رأسي. من حسن الحظ أن الشاطئ قريب، ليس بعيدًا نسبيًّا، وأنا أملك سيارة ستقلني في دقائق، أي لن أضطر للانحشار مع السردين الذي يفيق مع الضوء ليذهب إلى هناك. لأن البحر، وهو شاسع في الداخل، قليل جدًّا في الخارج. الآلاف، الآلاف ممن يسمون بالشعب، الذين تقلهم الحافلات، أو الأقدام يتجمعون كلهم في أمتار. آخرون، ربما، لأنهم من شعوبٍ أو كواكب أخرى فقد حجزوا لهم باكرًا كلمترات، وهم قلة قليلة. رغم هذا أفضِّل الانضمام إلى السردين، فهو لذيذ، ورائحته من رائحتي، وألطف ما فيه أنه يتكلم ويشتم ويغازل خاصة بالعربية، يكفيني عذرًا أن رأسمالي هو العربية.

٤

لا أسهلَ من الذهاب إلى البحر. أخرج منشفة وتُبَّانًا من الدولاب. عندي مرهم مضاد لاحتراق الشمس، قنينة ماء باردة، كتاب إذا اقتضى الأمر، هذا كل ما في الأمر. لن أحمل طعامًا، لا أشرب المونادا. البشر يحملون كمية مهولة من الطعام؛ أكياس من الخبز، مواعين مليئة بالمرق، بطيخ كثير، إلخ. عيسى يقول إن هذا هو الصح، وأن على بني آدم أن يهتم ببطنه أولًا، والبقية على الله. حارس عمارتنا لا يراني أحمل أي قُفة، فيشي بي عند الجيران كأنني أفعل المنكر. رغم ذلك لا يُبقون له حبة خردل من نفقتهم، لأنهم يقتنون بالغرام. وراءهم ديون لسنواتٍ مديدة، الأطفال الذين أنجبوهم بالدَّيْن، أيضًا … وحدي أنا حر؛ لذا سأذهب إلى البحر.

٥

وصلت إلى الشاطئ. اسمه ووضعه جميل: الرمال الذهبية. لا أذكر مذ متى لم آتِ إلى هنا. ظهر لي الرمل نظيفًا، قلت في نفسي هذا جميل، وحسنًا أننا نحن شعب السردين نتطور، نلبي نداء جمعية آفاق الداعي لاحترام البيئة. كأن الذي نشرتُ منشفتي بقربه قرأ ما في داخلي. لعلَّني كنت أهمهم الكلمات بلا وعي، فهذا يحدث لي أحيانًا، ألم أقل لكم بأني أعيش بعض اضطراب. توجَّه جارُ البحر إليَّ بتلقائية عجيبة، وبصوت السردين الضاج: «هه! انتظر إلى العشية، وسترى كيف أن أكحل الرأس سيحوِّل هذا الذهب إلى مزبلة، والسبب هو البطيخ، نعم البطيخ آلسي!» فكرت بأنها نظرية معقولة، وقررت أن أسميها ببساطة: النظرية البطيخية.

٦

دهنت وجهي وأطراف جسمي بالكريم، أضفت قليلًا من الزيت الملمِّع لأفوز بلون ذهبي، رغم فوات الأوان. هكذا، مجرد نزوة. استلقيت على ظهري لأكسب أكبر قدرٍ من الشمس، شمس الرمال الذهبية، قلت في نفسي مرة أخرى: ينبغي أن نفوز بها ما دامت هي متاحة بعد. مَن يدري، قد يوجد غدًا مَن يقطع وصول السردين إلى الشاطئ، وعليه عندئذٍ أن يسبح في الحمامات البلدية، أو في المجاري، أو في ماء البطيخ، أيضًا، حسب النظرية البطيخية، لمَ لا؟!

كانت الشمس فعلًا قوية، وحادة، ولم يزعجني هذا، بل فتح مسامي، لطَّف الجو تيارٌ هواء غربي. قلت لعلَّه ما كان ينقص مارسو بطل «غريب» كامو، وإلا لما قتل العربي على الشاطئ.

٧

انتبهت بعد أن تمددت أني لم أكتشف محيط منشفتي. لم ألقِ نظرة لا إلى البحر ولا إلى المستحمين، والفضولي الذي كلَّمني لم ألتفت إليه. هذه عادتي، ولكل واحدٍ أن ينظر إلى نفسه، والأفضل إلى داخله، وعندئذٍ ربما انتهت ولائم النميمة الرخيصة، وعمَّ السلام، أووف، ربما.

هي هواجس تنتابني حين أتمدد تحت الشمس في بحر الله، الذي، ربما هو ليس بحر الله، وإلا لماذا طردوني — ذات عام — من بحر المحمدية، ثم أودعوني السجن بتهمة الترامي على بحر الغير، الذي قال لي الضابط، وهو يشتم آخر أجدادي، بأنه ملك لَمن لا ينبغي أن يرِد اسمه على لساني لأنه لن يبقى لي لسان ولا أي عضو آخر، أنا وسلالتي في مشارق الأرض ومغاربها!

٨

سرى الخدر في حسِّي، وتفصَّد جبيني عرقًا، أحسست أني شرعت في التشمُّس. أحسست كذلك بطراوة الهواء رغم قوة الشمس. حمدت الله أن الوقت تبدَّل، كما يقال في الجرائد، وأنه ما زال للسردين مكان يصطاف فيه، حتى ولو في أمتار. كاد الخَدَر أن يسلمني إلى غفوة، لولا، لولا أني سمعت، عن قربٍ، كما عن بُعدٍ، ما يشبه همهمة، تقترب مني وتبتعد،

كموج البحر في مدٍّ وجزر. أحسستُني أتقلَّب فوق الهمهمة. أكاد أتميزها شكلًا، بساطًا، لا بل أرضًا تنهض من الأرض، فيصبح لها أقدام، تنطلق كمتسابقين، يصدر عنها دمدمة. أخيرًا، تلهث من عياء، تخور سيقانها، فتسقط في الأرض الأصلية، وتعود الدمدمة إلى سالف عهدها مجرد همهمة.

٩

طردت الدمدمةُ الخَدَر؛ أيقظتني تمامًا. صرت بين رغبتَين؛ أن أواصل إغماض عينَي، بما يقيني رؤية أي قبح، أن أفتحهما وأنهض للاطلاع على ما يحدث، لعلَّ شيئًا حدث، أو قريبًا جدًّا. ثم وجدت من الأنسب لي القيام؛ إن جسمي يحتاج إلى الحركة. أظن أني قضيت وقتًا كافيًا تحت الشمس، أظن أن جسمي يحتاج إلى الماء. ألم آتِ إلى هنا من أجل الماء، البحر، الرمال الذهبية، الساعة الآن الواحدة والنصف. البحر أراه لطيفًا لا هائجًا، أرمي نظري أبعد فأرى سابحين كثرًا متلاصقين كالسردين في العلب. سابحون من كل الأعمار، من الجنسين، الشاطئ ممتلئ على مدِّ البصر؛ طبعًا، هذا يوم الأحد، ونحن في عز الصيف، طبعًا! طبعًا!

١٠

لم أكن وحدي مَن يرى. السابحون والسابحات. الذكور والإناث. الكبار والصغار. المسترخون على الرمال، والواقفون. بدورهم، بل جميعهم كانوا ينظرون. أنا لم أكن أنظر إليهم. أرمي نظري هكذا حيثما اتفق، من غير أن أميز. السردين يشبه بعضه. أنا أشبه السردين. لذا لا يهمني رؤيته إلا لضرورة العيش المشترك، القاهر، بالصدفة، بسبب الاحتكاك، وبسبب هذا الشاطئ. إننا محجوزون هنا بالآلاف في مساحة لا تتعدى مئات أمتار. هذا طبيعي أن تتقاطع وتتداخل نظرات البشر إلى بعضهم، أن يتلاحموا أحيانًا، أن يشتبكوا. أنا واحد منهم، مَن سردينيَّتهم، فطبيعي أن يكونوا مثلي، حرفتهم أو هوايتهم، أن ينظروا … وهذا كل ما في الأمر.

١١

أنهي تردُّدي، أتقدم نحو الماء. كان الموج شبه منعدم، فصرت أمشي كما مشي موسى فوق الماء. أبلِّل أطرافي وأنا أتقدم بتؤدة في مساحة، لا أجدُ من عجبٍ، رغم اكتظاظ الشاطئ، مَن

ينافسني فيها. في الشواطئ السردينية لا يجد السابح مترًا ليمدَّ ذراعيه في السباحة، خاصة يوم الأحد. ها أنا ذا في الشاطئ نفسه، واليوم عينه، لكن المنظر اختلف عندي، كأن القوم اتفقوا بينهم لسببٍ أجهله، طبعًا، أن يتكرموا عليَّ، موقِّرين شيبي، مبجِّلين ميلي العنيد إلى الوحدة، فتركوا لي عشرات الأمتار ألقي فيها بجسدي، وحدي، أمدِّد ذراعي، دافعًا ساقَي خلفي، بملء طاقتي، وتمام سعادتي، وأنا أتنفَّس عميقًا، وأغطس، وحين أصعد — ياه — لا أرى أحدًا!

١٢

لا، لم يكن السابحون الآخرون قد اختفوا تمامًا، لم يكن البحر قد أقفر، ولم أكن، أنا بدوري، ضحية واحد من استيهاماتي، التي تجتاحني مرة، مرة. عندما كنت صغيرًا، وأذهب إلى البحر مع رفاق حيي، غالبًا ما نرى حالة طفل، بل وشخص كبير السن، غريق. نرى السابحين بالآلاف وقد صاروا فجأة جماعة متكتلة لَمَّها الفضول في دقائق، والكل يريد أن يعرف هل مات الغريق، والكل يعلِّق، ويندِّد بالتهور، وقلة العقل، وأن البحر غول، وأن بني آدم يلقي بنفسه إلى التهلكة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا اتفق أن الغريق لم يغرق، واستطاع النهوض، يسمع ألف شتيمة، وألف موعظة، ويبدأ الجمع في التفرق، وتنتهي حفلة الموت ... إلى حين.

١٣

هكذا رأيتهم قد تجمَّعوا مثل صورة الصبا، مع فارق أنهم لم يكونوا عاكفين على شبه غريقٍ، ولكن على النظر في اتجاه واحد، وحيد، اتجاه لم يكن فيه أحدٌ سواي. طبعًا، لم أكن قادرًا أن أرى نفسي، ولكني كنت متأكدًا أن لا أحد غيري حولي، أو بالقرب مني، بالتالي فها أنا ذا وحدي. فقلت في البداية معلقًا بابتسامة ساخرة: أليس هذا هو الوضع الطبيعي الذي أفضِّل. ما ألطف هؤلاء الناس الذين يتيحون لي فرصة مؤقتة لأنسلخ عن الطبيعة السردينية، هم — فعلًا — كرماء ومتسامحون، وها أنا ذا أراهم، يتأكد لي إذ أراهم يتراجعون إلى أقصى مساحة ما زال الشاطئ يتيحها لهم، ولكني، ولأمر ما كنت أرى في عيونهم جحوظًا و... وشررًا!

١٤

ساءلت نفسي هنا: ترى، أوَفِيَّ ما يعيب؟ أوَ بدَرَ مني تجاههم سلوكٌ معيبٌ؟ لست إلا مواطنًا سردينيًّا يرتاد الشاطئ يوم الأحد، لأن الحر يزهقه، ولأن البحر، أو ما تبقى منه مجاني، ولأن …

ليست لي كرش متكورة؛ لا عاهة تلفت النظر إلى جسدي؛ لا أقفز كالقردة، ولا يصدر عني صوتٌ قبيحٌ مثل مغني هذه الأيام؛ وها أنا ذا أتلمَّس ذقني فهو حليق … ماذا بقي، ربما، ما قد يخيف، أو يبعث على الاختلاف، فيتراجع القوم إلى أن أصبح البعيييد؟ هكذا لا يوجد ما يخيف، وليستْ إلا هواجسي ما يولد الوسواس الخناس، إلى متى سأبقى ضحية هذا الوسواس؟ إلى متى أظل أنظر إلى مَن حولي كأنهم يريدون بي شرًّا مستطيرًا، وهم طيبون، طيبون!

١٥

هذا ما ظننت، مرة أخرى، ثم ها أنا ذا يكذِّبني ظني، وإلا لمَ صرت أرتجف؟ لمَ أنا الذي طفقت يتراجع في الجهة المعاكسة؟ وهم، الآخرون المتكاثفون جميعًا، نحوي يتقدمون. الشمس التي كانت في قلب السماء تضرب الآن عينَي، فأكاد أعشى، أكاد أترنَّح، ولا أعرف ماذا أفعل والمتجمهرون ما انفكُّوا يتقدمون. لست مارسو، كان مارسو وحده رأسًا لرأسٍ مع العربي فسدَّد إليه إطلاقة قاضية، لأي سبب كان. أنا وحيد، كالعهد بي، ووحدي أواجه الحشد السرديني، لا طاقة لي به، والبحر أمامي، وهم كالعدو قبالتي، فتوجهت إلى شرق الشاطئ حيث صخور ناتئة، مشيت، وثبْتُ، ركضتُ، صرت ألهث، ولم أتوقف إلا في الطريق العام، أنا ألهث!

١٦

كان أول ما صنعت، وقد وصلت سالمًا إلى بيتي، أن وقفت طويلًا أمام المرآة التي في مدخله، كنت ما أزال بهندام البحر. جسمي عارٍ، مُسْمَر، ليس عليَّ غير تُبَّاني، وقلت في نفسي هذا طبيعي. للتوِّ ضجَّت في سمعي أصواتٌ: لا، لا، هذا ماشي طبيعي. تدريجيًّا، بدأت الأصوات تتشكَّل هيئاتٍ لرجالٍ ونساء ضخام، تتخلَّق منها وجوه ملفوفة بعمائم من شعر كثٍّ

كالحلفاء. عدت أقول: ولكن أعبادَ الله أنا ماشي عريان! فجاءت أصواتهم تعوي: بل أنت عريان وعار!

أجسام ضخام ترتدي أكياسًا سوداء طويلة حتى الأردان والسيقان، تعلوها قواقع ورءوس أسماك ميتة، ولموج البحر منها اصطخابٌ عنيف، ومن كل فكٍّ أنياب تمتد، وأنا عار أصرخ!

١٧

وعيت أني هالكٌ — لا محالة — لو بقيت قبالة المرآة، فهم شرخوها وخرجوا، أراهم سينقضون عليَّ أنيابهم في عنقي، لحمي يتطاير رممًا ودمًا، وأنا أتسلق الطابق الثالث من عمارتنا، فالرابع، وهم خلفي، لم أعُد أعِد الطوابق، ونفَسي يركب لهاثي، ولهاثي سُلمٌ أصعد عليه، بينما الأنياب تطول، وهي تتسنن مشحوذة، وحلقة الهواء هي الشاطئ، ومن البحر تخرج حيوانات تتخبط وتعوي هائجة: سنذبحك، سنأكلك، أنت عار، عار. لم يبقوا وحدهم؛ إذ انضم إليهم جيراني، انضم إليهم ساكنة الزقاق، نُفيسة البقالة العانس، عيسى بائع مواد تقوية الباه، انضم إليه مختار الحي بنفسه معه صبيته المخبرون، وهم يصرخون: نعم، نعرفه، هو دائمًا عريان!

١٨

كنت قد وصلت إلى السطح، كنت قد وصلت تقريبًا إلى السماء. فيَدي تلامس الفراغ. جسدي العاري مفتوح على عراء مطلق. لا أرض، لا بحر، لا شمس، لا قمر، لا نجوم، لا إنس ولا جان. ليس إلا الفراغ المطلق، جغرافيا الهواء، وأنا كتلة تتموَّج، لا تصعد ولا تنزل، مثل كوكبٍ معلق في الفضاء منذ ما لا أعلم من زمن. فجأة، انشقَّ الفراغ والهواء، فظهرت أبدانهم الضخمة، وتسنَّنت أنيابهم تمتد إلى عُريي المطلق، ولم يبقَ بيننا إلا سحابة من عواء حيواني شنيع، وحين أوشكت الأنياب على الفتك بي، رأيتها اليد البيضاء تنزل من السماء، يد لم أرَ مثلها تتدلى لي وأصابعها تتكلم، تخاطبني: اصعد، نحن هنا في الأعالي نحب العراء!

الرباط في ١٠ / ٠٨ / ٢٠١٠م

أحدب الرباط

رأيت الرجل يصل.

رأيت الرجل يصل، من حيث لا يراني.

كنت واقفًا هذا الصباح حين رأيت الرجل وهو يصل، من حيث لم يكن يراني.

كنت واقفًا هذا الصباح الباكر، كما اعتدت الوقوف في صباحاتٍ سابقة، في شرفة الشقة.

رأيته من الشرفة يصل، وهو يدفع أمامه خطوات ثابتة.

كنت واقفًا في الشرفة التي تطل على الحديقة، حديقتنا الصغيرة التي غرسناها، نحن سكان العمارة، لننعم ببعض العشب في وجه البنايات المتكاثرة، بنَتْها الدولة، فحاصرتنا من كل النواحي. وزادت المقاهي، ومحلات البقالة، والمسجد الذي يؤمُّه مصلُّون حقيقيون، ويتحجج به موظفون غشاشون، وبسببه يتربَّص بنا الشحاذون والمعوقون، معهم والمخبرون، أيضًا.

كنت.

كنت واقفًا أطلُّ من الشرفة، كعادتي، في الثامنة من صباح كل يوم.

كنت قد أطللت في الثامنة، وعدت لأطل للمرة الأخيرة في التاسعة صباحًا هذا اليوم.

ولما أطللت رأيت الرجل.

رأيت الرجل الذي حسبت — للوهلة الأولى — أني لم أره من قبل.

رأيته، بالأحرى، كمن يرى شخصًا للمرة الأولى.

أكون في الشرفة المطلة على الحديقة الملحَقة بعمارتنا، سيَّجناها بأسلاكٍ لمنع الشحاذين والنبَّاشين من احتلالها. قبالتي وزارتا الخزينة والتنمية، باتجاه موقعهما أراه يدفع خُطاه، لاهثًا ولا شك من أثر إجهاد.

لم أكن قد أعرت له انتباهًا قبل هذه المرة التي أنظر فيها الآن من الشرفة، وهو يتجه إلى الساحة التي تفصل بين وزارة الخزينة ووزارة التنمية. لم أتساءل من أي قنت من الأرض وفدَ هذا المخلوق ليصل إلى حيِّنا هذا، وأنا موقن أنه ليس من ساكنته. أغلب سكان حيِّنا لا يمشون على الأرض، يخرجون كالفئران من مرائب العمارات إلى الطريق العام، ومنها يعودون وهم لا ينظرون إلى أحد، أما النساء بينهم فأنت تقبض على السماء ولا تنال نظرة منهن، ويلييييي!

كنت موقنًا أنه ليس من سكان حيِّنا. فهم كثر يتقاطرون على هذا الحي صباحًا؛ خادمات في البيوت، كنَّاسات في الإدارات، حراس سيارات، ورهط من شحاذين ومن أفارقة هائمين على وجوههم، ينتشرون حول المسجد، حتى تظن أن المساجد إنما تتناسل ليجد الأفارقة ما ينفقون.

هو لم يكن شحاذًا. الكسوة الزرقاء الباهتة التي يرتدي تفيد الناظر بمهنته، زرقاء، هي على الأغلب هندام حراس السيارات. هؤلاء في المغرب تجدهم في كل المدن، اكتسحوها، يتقاسمون الشوارع والأزقة والساحات، لا متر يكاد يفلت من سيطرتهم، يحلبون الدرهم قسرًا أو استعطافًا من كل عابر، يصلحون لكل خدمة، أنت وما تطلب، والسلطة تحتاج إليهم كمخبرين.

وكما أراه هنا، من شرفة شقتي المطلة على الحديقة تحتها، والوزارتين قبالتها، وساحة المسجد على اليسار، هو رجل باين عليه درويش، كما نقول المغاربة، عن كل مَن تعييهم الحيلة، أو أي مغفل، ساذج. هؤلاء صاروا عندنا كثرة لا يضاهيها إلا أخرى كاثرة من النصابين والمحتالين، ونحن سكان هذا الحي بِتنا في كماشة هؤلاء وأولئك، وأنا بالذات، لأني أقف كل صباح، أطل من شرفة شقتي على الخارج، أرى ما يعجب، وما لا يعجب، وأنا أتميز من الغيظ والقرف.

الرجل الذي يمرُّ في الثامنة صباحًا، يتميز عن غيره، زيادة عن لباسه الأزرق، بقصر قامته، وبنحُوله، وإن دققت لفت نظرك فيه ما يشبه انضغاط رأسه في قفصه الصدري، حتى لتحسبه بلا عنقٍ. قضيت أيامًا وأنا أحصي أوصافه، لا أعرف عن فضولٍ أم لشفقة؛ ولكن، لماذا أشفق عليه وأنا لا أحب هذا الرهط من البشر، على الأقل لأنهم يهجمون على حيِّنا، آتين من كل فجٍّ عميق؟ حاولت في البداية أن أتعاطف معه، أحس بلهاثه ينقدف أمامه عندما يمرُّ قرب الحديقة، فأقدِّر أنه قادم من إقامة بعيدة، في حي صفيحي، لا شك، بين البحر وما لم يُحطب بعد من الغابة. أقول في نفسي: المسكين، قطع مسافة أقدِّرها

بسبعة كلمترات، كل هذه المسافة قطعها على قدمَين، وجسده القصير، النحيل، وساقاه الدقيقتان، كيف أسعفتاه، فأراه يمرُّ الآن تحت الشرفة.

ثم أزيد، إنما هنا يكسب، هنا عيْشه، ووحدي أتوهَّم أنه شقيٌّ، والدليل ها هو يقترب من ساحته بمرحٍ وانشراحٍ، لا أميز ملامحه، إنما حماسه للوصول بادٍ من خطوته الواثبة قدَّامه، ويده تحيي شخصًا قريبًا أو بعيدًا لا أراه، ولا شك أنه يبتسم، لا شك أنه فرح، وسيخوض نهاره الجديد.

هذا الصباح رأيت الرجل يصل.

من حيث لا يراني رأيته يصل، لأني أكون واقفًا أطل من شرفة شقتي المشرفة على مساحة واسعة من البناء الإداري، والموظفين المتسارعين إلى المقاهي المجاورة لالتهام فطور إضافي، والخدم والحراس الراكضين لتجديد السيطرة على مواقعهم، وهو القادم من بعيدٍ لاستلام نوبته في الساحة بين الوزارتين. القادم مثقلًا بأعباء الزمن، هذا ما كنت أقدر في البداية، لكني هذا الصباح بالذات رأيت شيئًا آخر، حقيقيًّا يثقل على كاهله، أعني ظهره. وما كان يبدو عليه أنه يحمل كيسًا ولا حقيبة، بينا ظهره منتفخ إلى الوراء، ثمة كتلة ناتئة فيه، من شرفتي بالطابق الخامس أميزها جيدًا مثل هرمٍ صغير، ولو كان امرأة لقلت إنها تردف ابنها خلفها، لكنه يقينًا رجل يضع طاقية ويرتدي بنطالًا ولباس الحراس الأزرق، وأظنني سمعت صوته الأحرش.

هذا الصباح، الذي كان ممطرًا بعد جفافٍ طالَ، وباردًا بعد حرٍّ طويل، رأيت الرجل القصير، قليل الجسد، نحيل الساقين، ضامر الوجه، أيضًا، يمرُّ وهو يضم ذراعيه حول صدره، يتقي البرد وهبَّة ريح قوية آتية من جهة البحر الغربية، طوَّحت بطاقيته فانحنى، ومعه انحنى جسده الذي ظهر يضغط عليه، وهو في التقاطه كأنه يحاول التقاط جسده كله من ضغط ثقلٍ ما. شغلتني لحظة الريح تضرب أعالي شجيرات نخيل غرسناها في الحديقة فخِفتُ عليها من الكسر، ولما أعدت بصري نحو الشخص كان قد استقام واقفًا، وتقدم أمامًا، وحدبتُه خلف ظهره.

هذا الصباح، من على شرفة شقتي، زدت من وقت فضولي وإطلالي على الواصلين والهاجمين على حيِّنا من أصقاع بعيدة، فأمكنني أن أتتبَّع مشاهد وحركات كثيرة، وأن أرقب خاصة الشخص وهو ينتهي من عبور الطريق المؤدية إلى إقطاعه، وفي تلك اللحظة بالذات رأيته يقفز نشوانَ فرحًا، يدور حول جسمه كخذروفٍ، وقد ألقى بطاقيته إلى علٍ، واتجه رأسًا إلى زاوية جلب منها سطلًا، ومنشفة، وعصا أيضًا، وانغرس في وسط الساحة كنصبٍ تذكاري.

ولأني نسيت منشفة أتركها للشمس قليلًا، عدت على غير العادة إلى الشرفة فلفتَ نظري أن النصب ما زال قائمًا حيث تركته، مع فارق أنه يختلف عما أعرف عنه. ما زال قصير القامة، نحيل الأطراف، لكن قامته مستقيمة، ورأسه مرفوع. فركت عيني لأتأكد مما أرى، فلم يك إلا الشخص عينه. كان الحيز الأكبر من مساحة حراسته قد امتلأ بسيارات موظفي الوزارتين، وبعصاه يشير إلى الداخل والخارج، وربما يتوعد أي لص أو منافس محتمل على موقع الحراسة، ثم بين هذه الحركات ألمحه يقفز ناحية صندوقٍ موضوع يمين الساحة، مغطًّى بثوبٍ أخضر. يقترب من الصندوق في قفزة واحدة، وبحركة بهلوانية ينقز فوقه، وقد تدلَّى رأسُه ليرى عبورًا ما يحتويه، وليعود إلى وقفة النصب التذكاري. وقفة يميل فيها جسمه ناحية الصندوق، كمَن يريد الاطمئنان على شيء فيه، بقيت دقائق أواجه المكان متحيرًا وأنا لا أفهم.

هذا الصباح وقفت أطل من شرفة شقتي، كما أفعل كل صباح. هذا الصباح رأيت الشخص يمرُّ كعادته قرب حديقة عمارتنا، وسيقطع الطريق متجهًا نحو ساحة حراسته. قررت هذا الصباح ألَّا أكتفي بإطلالتي العابرة، بأن أتتبَّع حركاته وسكناته لعلَّني أفهم ما يبدِّد حيرتي. جلب سطله، ومنشفته، وعصاه، ثم، طفق يتلفَّت بحذرٍ — تراه، ممن يخاف؟ — و... بخفة بهلوانية لا أعرف من أين جلب الصندوق، ولفَّه بمنديلٍ أخضر، قبل ... قبل أن ينحني تقوسه، فيمد كلتا يديه إلى الخلف ويفكك، يفكك الحدبة التي تعلو ظهره، ويضعها في الصـ ... الصندوق، وفي ثوانٍ يرجع مستقيمًا، مستأنِفًا وقوفه في نصبه التذكاري، فبقيت أواجه المشهد متحيرًا لا أفهم.

هذا الصباح، استيقظت متأخرًا إثر سهرة فاتكة، ففاتني — بالطبع — أن أرى ما اعتدت على مراقبته من الشرفة. لم يفتني إلا المعتاد؛ إذ انتزعني من سريري صراخٌ صادرٌ من خارج عمارتنا، تأكدت وأنا أطل، هذه المرة، من النافذة، فأرى بين عينَي نصف المغمضتين، جماعة متشابكة قرب الحديقة، صراخها يفوق عددها، والمارة من بعيدٍ وقريبٍ، يتوقفون مستفسرين، والجيران، أيضًا، أخرجوا رءوسهم بدورهم يستطلعون. ارتديت ملابسي على عجلٍ، ورماني فضولي على عجلٍ إلى المصعد ليرميني إلى الخارج، أنحشر سريعًا مع الراغبين، كما يحدث في كل معركة بالشارع، في معرفة ما يحدث، والانحشار ربما فيما يحدث. رأيت بطل المعركة هو الشخص النحيل، مقوس الظهر، ذو وقفة النصب التذكاري. رأيته يمسك بتلابيب شخص آخر يشبهه كأنهما توءمان، وبينهما، وحولهما اثنان، وأربعة، وستة، وثمانية، وسمعت صراخه الغاضب، المحتج: ألشفَّار، ألقمَّار، ألبَّاندي، رجِّع ليَّا ديالي،

أعطني حِدبتي! رجع ليَّا حِدبتي! ويداه تتعثران ضربًا وجذبًا في ظهر خصمه، أسمعه يحتجُّ بدوره: ألا أسيدي، هذي حِدبتي أنا، من عند مولانا! والآخرون الوسطاء المتشابهون يحاولون الدخول بخيطٍ أبيض، وهم يهدِّئون الحارس الأزرق: يمكن طاح لك في الطريق، يمكن نسيتها في الدار، العن الشيطان!

هذا الصباح، لم أطل من الشرفة في وقتي المعتاد، ولا همَّني أمر الحارس في شيء. خرجت لأجلب الخبز والجرائد. صادفت في الطريق عيسى، رب مطعم بالحي، وصاحبٌ لي يهتم بتغذيتي خارج وقت هجوم الموظفين، الذي تعارفنا عليه باسم تسونامي. نظر إليَّ، بالأحرى إلى قامتي كلها، وكأنني مخلوق نادر يفحصه، فتجاوزته بعد السلام. دخلت إلى متجر مليكة فنظرت إليَّ مثله. ولما اقتنيت جرائدي من عمر الريفي اكتفى بالقول: وأخيرًا ... لم أسأله أخيرًا ولا أولًا على ماذا؟ أحنيت رأسي، أحسُّ بوجعٍ في دماغي، وضغط في جسمي وبثقل على ظهري خاصة، وأنا لا أفهم.

أعود إلى شقتي من اتجاه المسجد، فلا أقابل شحاذين لأن أدان الظهر ما زال بعيدًا. أُقبلُ على العمارة من شمال الحديقة، أي بالضبط من الجهة التي اعتاد الشخص الذي سرقوا حذْبته يمرُّ منها، ومن موقع المعركة التي نشبت صباح أمس ألاحظ شخصًا، لعلَّه من سكان العمارة، يقف في شرفة شقتي، أو الشقة الرابعة تحتها، وهو ينظر ناحيتي، يتفحَّصني كما فعل عيسى قبله، ومليكة، وحارس بنايتنا الذي لا يتوقف عن التدخين، ومراقبة الداخل والخارج والعابر. يغيظني من يذهب ويجيء في الشرفة وعيناه تأكلانني، كما كنت أحيانًا آكل الحارس الأزرق.

أدير له ظهري لتصلني للتوِّ قهقهاته قبل أن أصل إلى العمارة، فإلى شقتي، ومنها إلى الشرفة حيث لا أجد أحدًا، ومنها إلى الساحة بين الوزارتين أراها خلوًّا من النصب التذكاري، فأذهب إلى الحمام لأغسل وجهي كي أتأكد من صحوي، وهنا أتكشَّف لنفسي، كما لو أني أراني للمرة الأولى؛ أراني أتفحصني في المرآة الطويلة، وجهي هو وجهي، وأعضائي هي أعضائي، وطولي وعرضي، فأحمد الله لا شيء تغير مني، بلى، ربما، لا، بلى، قفصي الصدري، عنقي.

ثقل ما يضغط على ظهري فيجذبه إلى الوراء، ويضيق كتفي بين عنقي، شيءٌ لم يسبق أن رأيته، ولكنه الآن هنا، لا بد أنه كان هنا قديمًا، دائمًا، إنما كيف لم أره، لم أحس به من قبل؟! كيف؟ لا أفهم.

هذا الصباح دائمًا، وهو الثلاثاء ٢٣ نونبر ٢٠١٠م، الموافق لـ ١٧ ذي الحجة ١٤٣١هـ، عدت إلى الشرفة، أريد أن أنظر إلى الخارج عساني أفهم، وقد ضاق بي الداخل، فاستقبلتني عاصفة تصفيق صاعدة من الحديقة، حيث احتشد نفر من أناس أعرفهم، بينهم جيران، ومليكة، وعيسى، وعمر الريفي، والحارس الأزرق، وحارسنا البرقاق، وأنا أيضًا كنت معهم، وكانت ظهورنا جميعًا مقوسة، وأقفاصنا الصدرية ضيقة، وأنا بعد أن رددت لهم التحية، أحسُّ بالاختناق، فأسرع إلى مكتبي، وأفتح حاسوبي، وأجلس لأكتب هذه القصة، لعلَّ وعسى أن أفهم.

شوكة في الحلق

١

من عادتي كلما ولجت النادي الرياضي أن أتلفَّت حولي متفقدًا المكان بنظرة شاملة، وأنا أقصد غرفة إيداع الملابس، بمجرد ما أخرج منها أجيل البصر حولي مدققًا ومميزًا كمن يبحث عن شخصٍ بعينه أو شيء محدد. وهذا صحيح تمامًا، فرغم أني أكون حريصًا بالدرجة الأولى على أداء حصتي من التدريب الجسدي في أسرع وقتٍ، وأنجع ما يكون، إلا أن انتباهي لمن حولي لا يفتر، ورواد النادي عمومًا، ورغم عياء آخر النهار، يحرصون على تبادل التحية، منهم مَن يغرق في حديثٍ طويلٍ، والثرثارون هم رياضيو الكمال الجسماني، عدا الإناث لا يبالين بأي جارٍ، تراهن، هن الممصوصات، عاكفات على التنحيف عكوف العباد والمتصوفة.

٢

لم أكن لا من هؤلاء ولا من أولئك، وإنما أحرص فقط على التحية وردِّها في حدود المجاملة، فأنا آتي إلى النادي للعناية بجسدي، وعندي من المشاغل ما يغنيني عن القيل والقال. إنما أحيانًا هي العادة، أو ما لا نفكر فيه يجعلك تخرق نظامك، ثم إن الإنسان هو من يأنس، وهو ممن يألف ويوَلِّف، وهكذا، ودون انتباه، وجدتني أقترب من جماعة الكُلَماء، وألفيتني، أيضًا، أكاد أتواد مع بعضهم وإن بقيت أتحاشى ذوي العضلات المفتولة، أنفر من بنياتهم، وأستخف بعقولهم، وهذا الذي تواددت معه بالذات لم يكن منهم، ولعلَّي اقتربت منه أكثر لأني أحسست لديه النفور نفسه، فقدَّرت أنه عاقل، لا خفيف المخ مثلهم؛ وهو رأيي على كل حال.

٣

من بعيدٍ قليلًا انتبهت إلى جسمه الضئيل، وإلى ساقيه الضامرتين، بينما رأسه أكبر ما فيه، تحيط بوجهه نظارتان بإطارين أسودين كبيرين. لم تكن ملامحه لا صامتة ولا معبِّرة، وإن أوْحت لمن يتطلَّع إليه للمرة الأولى بالثقة، مع تحفظ غامض يجلل عينيه وهما تجولان حولهما. وهكذا لاحظت أنه لم يكن يلفت النظر إليه، ولا جسمه يسمح له بأن يتضخم، أراه ينتقل من آلة إلى آلة بهدوء، وبعد تسخين أوَّلي يصعد إلى قاعة الطابق الأول حيث يشارك في حصة الفتنس الجماعية ثم ينصرف إثرها مباشرة بعد أن يمر لتغيير ملابسه. لا أخفيكم أني سجلت عدم استحمامه في الدش مثلنا جميعًا فاستهجنت ذلك منه، وإن قدَّرت له سببًا.

٤

جاء تعارفنا الأول صدفة، أو بحكم الجوار، جوار آلة البساط للمشي والركض. كنت، وما أزال، أمارس الركض بافتتان. أصعد فوق البساط، وأطلق ساقَي كأنما للريح، ولا أنزل إلا وأنا كلي ماء. لاحظت أنه يختلس النظر إلى عدَّاد آلتي فبادرت أشجعه أن يزيد من سرعته ففعل، وطفقنا نزيد درجة درجة، ونحن نتبادل كلمات متداولة في هذا الوضع، وأنهينا ركضنا أخيرًا في وقتٍ واحدٍ، ومعًا صعدنا إلى قاعة درس الفتنس كأننا على اتفاقٍ مسبقٍ، وحين انتهى الدرس نزلنا نحو مخدع الملابس، خرج بسرعة أمامي بعد أن وضع جاكيتته على كتفيه وهو يرسل إليَّ التحية مودعًا، وقصدت من جهتي الدش وأنا أستغرب كيف يحرم نفسه مما أعتبره أحلى متعة في اليوم بعد ممارسة الرياضة، إن لم تكن من بين أحلى متع الدنيا طرًّا.

٥

في اليوم التالي، وأنا ألهث فوق البساط، مرَّ بقربي، وبادر يحييني بحفاوة، وبمثلها أجبت، وانصرف كلٌّ منا خلال ساعة إلى نشاطه الرياضي، كما ينصرف الجميع في النادي، لا يكاد يأبه أحد بالثاني إلا لمامًا، أو حسب من يألفه ويستجيب. وقد لاحظت أننا معشر الأجانب هنا في الوسط الفرنسي نستجيب بسرعة لأقل بادرة تحية أو استلطاف، مرادنا أن نُفهم مضيفينا الفرنسيين بأننا نحن العرب لسنا متوحشين ولا إرهابيين، كما يشيعون إما علنًا

أو يضمرون على الأغلب، وتساءلت هل صاحبي الجديد، الذي لم أعرف اسمه بعد، من جبلتنا، وزاد شكي أنه لم يقدم نفسه ولا أنا، كما نفعل نحن كل العرب، حتى وبشرته بيضاء لا سمراء مثلي.

٦

ولما عرَّفته بنفسي فاضت بشاشته، وإن احتفظت عيناه بالنظرة الغامضة، وطفر كلامه: ها، إننا إذن أقارب، أولاد عم، أنت مغربي وأنا تونسي، أقصد أصلي من تونس، جدي وأبي كان هناك، رغم أني الآن هنا، أقصد أمس، واسمي دائمًا ألبير، وأنا صغير كان رفاق صباي هناك يسمونني البير، Je veux dire le puits، يقول أبي إنه قضى هناك عمرًا جميلًا، وبدوري أحتفظ ببعض النتف، أحب الشمس خاصة، والبحر، والنساء، والهريسة خاصة، آي، ياي، هل عندكم في المغرب الهريسة؟ المهم، نحن الآن أقارب، أليس كذلك يا سيد أحمد، من اليوم ينبغي أن نتخاطب بلا صيغ المجاملة، لا أظن لديك مانع، لا أظن؟!

٧

في اليوم التالي، وأسابيع توالت، صار عندي لقاء ألبير في النادي عادة لا غِنى عنها، يكون أول من أتفقَّده، بقدر ما بتُّ أعرف مواعيد قدومه، وهو كذلك، وأنواع الرياضات التي يمارس، والدروس التي يحضر. إن وصلت ووجدته يمارس أحرص على تحيَّته بإشارة من بعيدٍ، وهو يفعل كذلك، وإن اتفق أن التقينا مباشرة لا بد نتبادل بعض الحديث، لنصبح لوقتٍ وجيزٍ من معشر الكلماء، رغم أن ليس عندنا كثير نقوله خلا المعتاد من حديث عن الصحة، والطقس، هذه الآفة الفرنسية، و... و، طبعًا، كيف قضيت الويكند، هذا الهوس الفرنسي، لكنه أمس لم يكن هوس ألبير، قال إن عيدنا نحن غدًا «البيساح» (عيد الفصح لدى اليهود) لذا سأعود مبكرًا.

٨

لم يفاجئني في شيء أن ألبير يهودي، فاليهود في باريس كثر، وفي الدائرة السابعة حيث النادي الرياضي عددهم كبير نسبيًّا، وهم يسيطرون تدريجيًّا على مرافق تجارية هامة، وبالمناسبة فقد تعرَّفت على مهنة ألبير بدون أن يخبرني، وذلك لدى مروري للتبضع في

Rue de La Fontaine، حيث يملك متجرًا لبيع الساعات والمجوهرات، وفي نفسي قلت إنها مهنة تليق به لرقَّته، ولأنه أوْحى لي بذلك مرة وهو يتحدث عن دقة عمله، كما انتبهت إلى أصابعه اللوبيائية وأظافره اللامعة، متقنة التقليم. وهل أكتم أني حين ظهر لي من خلف واجهة المتجر، وقابلته مباشرة بالمعروضات الفاخرة في رفوف الواجهة ذهب خاطري بعض الشيء إلى أن اليهود هم أصحاب هذه المهنة، أعرف هذا من المغرب، ينافسهم أهل فاس فقط، وليس بدو برشيد مثلًا، لكني نسيت تمامًا هذا الخاطر أو تناسيته حين تقابلنا الغداة في النادي.

٩

قبل ذلك عادت بي الذاكرة إلى طفولة بعيدة جدًّا في مسقط رأسي، هناك في برشيد، حيث اليهود إسكافيون وصاغة، وحيث لعبتُ واختليتُ بأول صبية في سطيحة بيتنا، كانت أمها اليهودية تحضِّر لنا أكلة السخينة كل يوم سبت، وتعود بطعامٍ من عندنا وثياب للخياطة تمهرها، ولم أعرف إن أحببت الصبية، لكنني أذكر أن أمي حرمتني من يهوديتي، التي كانت بيضاء وبضة وأنا وإياها نمرح سويًّا. أذكر أني بكيت طويلًا حين لم تحضر مَن ربما اسمها جوهرة، ولا أمها أشميحة، قالت أمي بعد زمن إن أبي شم فيها رائحة، ولم أفهم شيئًا، أو قليلًا بعد ذلك.

١٠

كدت أبوح لألبير بوجعي القديم هذا، لكني خفت أن يقدر بأني أسجنه في يهوديته، هو الذي خلا تلك الإشارة إلى عيده السنوي لم يشِر أبدًا إلى انتمائه الديني، ولا رأيت أنه، مثل آخرين، خاصة النسوة، أفصح بنجمة داود على صدره. ثم زدت قائلًا مع نفسي لِمَ أتحير في شأن لا يعني الرجل في شيء، أنا وحدي العربي الموسوس في هذا النادي بهذا الألبير، وفكرت، أيضًا، أنهم لو حدسوا ما في خاطري لتعقَّد الأمر، فلا يستبعد أن يرتابوا في سلوكي، في نواياي، ومَن يدري فإن ألبير نفسه قد يُشعِرهم بأنني أعامله كيهودي لا كفرنسي، أي مثل الجميع، بينما سمعت نصرانيًّا مفتول العضلات يخاطب في النادي صاحبًا جزائريًّا فظًّا قائلًا: !Oh, vous les arabes، ورغم أن ذاك الفظ ردَّ عليه بأنه فرنسي ظلَّ النصراني عند رأيه وخطابه، وواصل يسخر من العرب!

١١

اضطرتني ظروف عملي، كوسيطٍ تجاري متنقِّل، أن أغيب عن النادي، ولما عدت وجدت ألبير متلهفًا للقائي، متطلعًا لمعرفة سبب الغياب، واستبشر لما علم، واستأنفنا كلامنا القديم وفيه جديد. ولما غاب مدة أسبوع على النادي — أو يزيد — استوحشته، ووجدتني أسأل مَن حولي، وصولًا إلى المضيفات هل رأينه، فأُصدَم كلما جاءني الجواب سلبًا، خاصة أني لم أجد مَن يعير اهتمامًا بسؤالي، فالناس يدخلون إلى النادي ويخرجون على عجلٍ، الجسد همُّهم الأول والأخير، وألبير هو الشخص الوحيد الذي استفسر عن غيابي، ولعلِّي بدوري الوحيد الذي قلق لغيابه الذي لم يطل، على كل حال.

١٢

لم أخبركم أن ألبير من أشد المواظبين على الحضور إلى النادي، وأنا مثله ما استطعت. من الطبيعي، لذلك، وحين زاد غيابه مرة ثانية عن أسبوع في مطلع شهر يونيو انتابني بعض القلق، بل أكثر. إن ألبير يقول دائمًا لمن يحب أن يسمع بأن الرياضة هي الصحة الأولى بعد التغذية المنظمة، ولذلك لا تفوته أي حصة. ثم إني مررت صدفة قرب متجره فوجدته مغلقًا، وهنا أيقنت أن في هذا شؤمًا، ولم أجد مَن يطمئنني، وقررت أن أطلب منه رقم هاتفه في المرة القادمة، بل قررت أن أدعوه، حين يعود، للعشاء والتوادد أكثر خارج محفل النادي، فهو لطيف، وكان بدوره أشار مرارًا إلى ضرورة أن نلتقي في الخارج، وكذا، وكيت ... في المرة القادمة سيكون معي تليفونه، وحتمًا سنتعشى، وسـ ...

١٣

وأنا أتهيَّأ للركض فوق الآلة رأيت ألبير يدخل من باب النادي، وهو يمشي بمرحٍ أكثر من عادي. رآني فاقترب يسلم حيِّيًّا، فتلقيته مُرحِّبًا، وللتو لاحظت كيف أن وجهه مُسْمَر، أن وجهه ذهبي، وعليه سيما عافية طاغية، فقلت له يا ابن الذين، هكذا تغيب بلا خبرٍ، ومن أين لك هذا الذهب والعطلة لم تبدأ بعد؟! سمعته يجيب بصوتٍ خفيضٍ بأنه كان في مصيف جميل في ... وصل الاسم إليَّ شبه مهموس فعدت أستفسر فأجاب: C’est une plage magnifique! ثم: A Tel Aviv (في تل أبيب). قالها ومضى نحو مخدع الملابس، وأحسست بعدها أن الاسم لا يمر في أذني، لا يمر، مثل شوكة في الحلق واقفة، شوكة واقفة!

على مرمى حجر

١

في كل مرة أذهب إلى الأردن، وأنزل بعمان، أفكر بزيارة العقبة، أبقى أسبوعًا أو أسبوعين، بين زيارة الأصدقاء، والتجول في الأسواق، والجلوس في المقاهي لشرب الشيشة، ثم أبدأ بالتفكير في العودة إلى بلدي، فلكل مسافر عودة، هذا هو المبدأ. لكن قبل ذلك تطرق ذهني العقبة، وأقول مع رأسي أحتاج لزيارة هذه المدينة، ومنطقتها. أنا أعرف نفسي جيدًا إذا ألحَّت عليَّ رغبة ما، يا لطيف! فهي تسكنني، أتوسوس بها، وكلما حاولت التلهي عنها إلا وازدادت إحكامًا. أعرف أنها أنانية، بل وعبودية، وهذا يقلقني، يجعلني أحس بضعفٍ في شخصيتي، أسخط كيف تتملَّكني، أقرر نبذها والتعالي عنها، فما أراها إلا مقبلة عليَّ جحافل.

٢

في إحدى زياراتي للأردن استولت عليَّ رغبة زيارة المفرق. كنت سمعت عن هذه المدينة المرة الأولى من صديق سوري، أو ربما قرأت عنها قصيدة أو لوحة وصفية. أتذكر كيف وصفها كاتبها كأنها قطعة من الجنة أو سُرة العالم (Le nombril du monde) كما يقول الفرنسيون، وألحَّت عليَّ الفكرة، أعلنتها لمن حولي، كررتها فلم أجد حماسًا يُذكر. كانت المشكلة في مَن سيرافقني لزيارتها، وإلا فأي سيارة أجرة في محطة العبدلي ستقوم بالواجب، وأنا أحب، أو بالأحرى أستحسن الزيارات برفقة أهل البلد، تشعرك بالأنس، ثم إنك لا تضيع فيما لا جدوى منه، تذهب إلى القصد مباشرة، وتغنم الكثير إن وُجِد في وقتٍ وجيزٍ.

٣

وكذلك كان، فمن كثرة إلحاحي على الطلب في زيارة لاحقة شعرت أن السيدة أم عادل تتجاوب مع رغبتي؛ وإذ بها تعرب عن استعدادها لمرافقتي إلى مطلبي. سمعتها تعلن ذلك ببساطة وبدون حرجٍ، فشعرت بالحرج والامتنان في آنٍ. خاصة ونحن في مجتمعٍ التقاليدُ فيه صارمة، أنتم تعرفون، لكنها خمَّنت قبلي في مجرى مخي قاطعة القلق باليقين، وقائلة، وهي السيدة الشاطرة التي تعمل بالتجارة، أن لها مصلحة هناك، وستخدم نفسها بهذا «المشوار» قبل كل شيء، وتلفتتْ حولها تنظر إلى أصدقائنا المشتركين الذين تعرَّفت عليها معهم، كأنما ليؤكدوا صحة ما تقول، فهزوا رءوسهم جميعًا، إلا واحدًا نظر إلينا معًا بخبثٍ ظاهر، ولم نعبأ!

٤

في زيارتي الجديدة إلى الأردن، بعد أن زرت الأصدقاء جميعًا تقريبًا، وتجوَّلت في «وسط البلد» الذي أحب أكثر من مرة، وذهبت إلى الأماكن ذاتها التي أعرف ولا أملُّ منها، ودخنت كمية لا تُطاق من النرجيلة، أنفخها في الهواء نفخًا، ونجوت لا أذكر كم مرة من موتٍ محققٍ بسبب السيارات التي تتسابق في الشوارع/الطرقات، تحسبها ثيرانًا هائجة مكلَّفة بدهس البشر تخفيفًا من الديموغرافيا، وبعد أن كنت قد تناولت الأطباق المشرقية الشهية في الدعوات الأردنية الكريمة، عادت تحضرني تلك الرغبة الملحاح، فتسيطر العقبة على وعيي، وأكاد أنسى أنني ملزم الغداة للذهاب إلى مطار الملكة علياء، وإلا طار الحجز ووداعًا للبطاقة!

٥

هذه المرة، كان الدكتور أيمن هو من سمعني، ونحن شلة مجتمعة ليلة سفري، أناغي برغبة زيارة العقبة. تعرفت عليه في زيارة سابقة، وهو قليل الجلوس مع الجماعة لكثرة شغله في عيادة طب وجراحة الأسنان، لكنه ودود، لطيف المعشر، وتقرَّب إليَّ ظانًّا أني تونسي من بلد زوجته، رغم أني كررت عليه مرارًا بأني لستُ من تونس، حتى ولو أن بلاد العرب كلها أوطاني. سمعته يعرض عليَّ، وأمام استغراب الجميع، أن ينقلني إلى مدينة حلمي، من الغد إن شئت، فهو، أيضًا، يريد تغيير الجو، ومن هناك، حيث السوق الحرة، يمكن أن يقتني بعض ما يحتاج إليه البيت والأولاد، وليحسم أضاف، أما مسألة الحجز والبطاقة فأنا أتكفَّل بها.

٦

حين انتبهت أن رغبتي باتت على وشك التحقُّق انتابني بعض القلق، فأنا لا أخفي بيني ونفسي شَبَه سلوكي أحيانًا بسلوك الأطفال، أومِن أن تقدُّمنا في العمر لا يعني ضرورة انفصالنا عن خصائص مراحله السابقة، وإلا لم خَفَتَ فجأة حماسي، أرغب مباشرة في الانتقال إلى مطلبٍ آخر. ثم هناك شيء مختلف، أظنُّه صعد من لاوعيي للمرة الأولى، جعلني أتساءل لِمَ صرت طول الوقت، عدا ما سقت سابقًا، أسيرَ هذه الرغبة، هل الموقع الجغرافي للمكان؟ أم بسبب البحر الأحمر الذي يركن إليه خليجها؟ أم لأنها أبعد نقطة في الأردن، جنوبًا وعمقًا، وأنا أحب الذهاب إلى البعيد، الذي نسمع عنه، ونخال أحيانًا أنه من المستحيل الوصول إليه؟!

٧

ربما لهذه الأسباب جميعًا، أو ما هو أغرب، كأن أعدل تمامًا عن الرغبة وقد أيقنت أنها ملك اليد لأنصرف إلى سواها، قد تكون بدورها مرغوبة أكثر، وكبتُّها بعد أن سمعت مراتٍ من ينهي الجلسة يدعوني للتوجه إلى العبدلي فجرًا، فهناك شركات تنظم زيارة يومية لمدينة البتراء التاريخية، وتعود بك إلى عمان في اليوم نفسه. والرحلة مريحة، وببضعة دنانير فقط، وكذا، وكيت. أجل، البتراء كانت دائمًا بُغيتي، وسقف حلمي في الزيارة الأردنية، وفي أوروبا لا يسألونني إلا عنها إذا ذُكر الأردن، فأصير أنسج عنها الحكايات، وأبالغ في الوصف، والتفخيم، بناء على فُتات معلومات وصور سياحية، وأزيد نافخًا، البترا؛ طبعًا! طبعًا!

٨

لم تكن أم عادل لتبخل عليَّ بالرفقة، بل سمعتها تعلن، في غير جلسة، بأنها على استعدادٍ لتأخذني إلى هناك، وستكون مناسبة لأولادها كي يجدِّدوا زيارتهم لتراث أجدادهم، وليرسخ في ذهنهم أن الحضارات ليست هي طوب العمارات التي ينحشر فيها الخلق هذه الأيام، وأن الإنسان ينبغي أن يكون جديرًا بالانتساب إلى تاريخه وزمنه، لا ككل هؤلاء، تقول بتأفُّفٍ، همُّهُم فقط أن يملئُوا بطونهم صباح مساء بكل أصناف المعجنات، وبطونهم مندلقة تحت صدورهم، وتستدرك معتذرة للسامعين، ولي خاصة، مؤكدة أننا لا بد من أن نذهب إلى

البتراء في المرة القادمة، أنت توافقني، فشهر رمضان الذي جئت فيه لا يساعد على السياحة، أبدًا!

٩

حين غادرنا عمَّان صباح اليوم التالي، وقرأت في إشارات الطريق أسماء المدن القادمة أمامنا بعد المطار لاحظ الدكتور أيمن أني أتزحزح كثيرًا فوق مقعدي، سألني هل هناك ما يقلقني، فصمتُّ أولًا، ثم عدت أتكلم بسذاجة مصطنعة متسائلًا وأنا أوزِّع نظري بينه وعلامات الطريق، وأقول أخيرًا: وإذن هذا الطريق الذي يقود إلى العقبة هو نفسه الذي يؤدي إلى البتراء، والعكس صحيح. ثم أزيد باستغفالٍ واضحٍ من غير شكٍّ: ممتاز! والله شيء عظيم! لم يجِب في الحين على دهشتي المصطنَعة، تركني ساهمًا في تأمُّل مَشاهد الطريق إلى أن اقتربنا من منعطفٍ، وهنا كلَّمني بتخابثٍ: ما رأيك أن نزور البترا والعقبة في وقتٍ واحدٍ؟!

١٠

صرت كلما اقتربنا من العقبة أحسُّ كأن أعصابي كلها وترٌ واحدٌ مشدود، وفي الآن أتلهف إلى الوصول وأنا أتخيلها، والبحر الذي تنام عند خليجه، بألف صورة، ما استجمعته عن مدن سابقة، وما أسبغه على ما لم أعرف وأزر بعد من مدن. وكان هذا جزءًا من هوس يصيبني دائمًا، وأعزوه إلى طبيعتي التي تنزع إلى إسقاط أوهام وتصورات على الكائنات والأشياء بأكثر مما فيها أو تحتمل، ولم أعُد أقلق من هذا، أقول إن الكائن هو ما هو عليه، لا ما يريد أو يتصوره الآخرون عنه، القمر لا هو جميل ولا هو للحب، إنه كوكب منير فقط نراه بمراحل تشكل، والعقبة هي المكان الذي هي عليه ولا شأن لها، هي وساكنتها، بهواجسي وتوتري، بتاتًا.

١١

بهذا الشعور دخلت المدينة، وتحت تأثيره تجوَّلت في شوارعها الفسيحة، وتنقلت في أسواقها العامرة. فعلًا أدهشتني العقبة من أول نظرة، بهرتني، أولًا، بنظافتها، وتنسيقها البديع لدرجة فكرت أني في بلدة أندلسية، لا في أرض عربية حتى رحت أضرب الأرض بقدمي

ضربًا فلا يصعد من تحتي غبار. الأرصفة مغسولة، والأشجار مشذَّبة، ولا ضجيج للبشر، كما لا زعيق للسيارات. عندما قصدنا الأسواق لاحظنا البضائع وافرة، حسنة العرض، والتجار لائقون، وحين طرقنا مقهى للاستراحة لم يزعجنا ذباب ولا متسولون، ولا غطسنا في ضباب الدخان. قلت للدكتور أيمن يحتاج محافِظ هذه المدينة إلى تهنئة، وسكانها إلى تحية وامتنان.

١٢

جُلنا في الخليج، حيث رأيناه هو والميناء من أعلى، فبدا بديعًا بزرقة البحر الفاتنة، وشاليهات السياحة الممتدة على ضفَّته الشرقية، وسرنا طويلًا، مديدًا على طريقٍ سيَّار يحاذيه حتى ليغريك بمواصلته إلى نهايته، لكن إلى أين؟ وكيف؟ ثم عاد إليَّ وسواسي من جديد: هذه إذن هي العقبة كلها، جلها، وهذا خليجها، ثم ماذا بعد؟ ولم يترك لي رفيقي فرصة أطول لأتَهَوْجَس؛ إذ أدار مقود السيارة أراه يقفل عائدًا في اتجاه المدينة وقد زاد السرعة، قال إن الطريق إلى عمان طويل، ومن الأفضل أن نغادر قبل نزول الظلام، وزاد قائلًا باللياقة الأردنية: يا سيدي، عسى أن تكون قد أعجبتك العقبة، ومرحبًا بك فيها متى تشاء.

١٣

ونحن عند نهاية خط السير المحاذي للميناء، والطريق لسان أملس نازل بنا إلى نهايته في مركز المدينة، انتصبت قبالتي، كأنما فجأة، سلسلة من البنايات العالية والمتدرجة، عمارات بيضاء متكاثفة، وهندستها تلوح بديعة المعمار. طلبت من رفيقي على عجلٍ أن يتوقف فاستجاب دهِشًا. نزلت من السيارة ورحت أحدق في البنايات، هناك، لا هي قريبة ولا بعيدة، تفصلنا عنها قطعة أرضية خالية من أي بناء، واسعة ومسفلتة. استغربت لهذا الانفصال الذي يجعل من الأرض هناك كأنها مدينة أخرى بينما هي تشبه كثيرًا حيث نحن، بل قطعة من هنا.

التفتُّ إلى رفيق رحلتي لينجدني: ماذا هناك؟ لماذا لم نذهب إلى هناك؟

تردَّد قبل أن يجيب: تلك إسرائيل!

قلت: نعم؟! إنها مدينة إيلات!

– إيلات؟!

– بلى، إيلات.

– وإذن، فهي على مرمى حجر! ولا أذكر كم بقيت واقفًا، لا أتقدَّم خطوة، هو قد صمت، وأنا أردِّد كالمهلوس: على مرمى، على مرمى، ليست إلا ... على مرمى حجر!

ضياع في تونس

١

خلافًا لما يوحي به عنوان هذه القصة، فأنا لا أحب الضياع بتاتًا. إنني مخلوق ميَّال، أو صرت ميالًا إلى السكينة والاستقرار، لا أغادر الحي الذي أقيم فيه إلا لمامًا، ومن أبنائه من يضبط الساعة على مواقيت ظهوري. من كثرة ما امتلأ كوكب الأرض بالبشر، واكتظت الطرق بالسيارات والحافلات، بتُّ أخاف من التنقُّل في الزحام، كما لا أفهم كيف يمتطي كل بني آدم سيارة بمفرده، ويمضي بها وهو يتميز من الغيظ، يشتم، ويبصق، ويلعن اليوم الذي جاء فيه إلى هذه الدنيا، ويتعجب من أين اندفعت هذه الخلائق مرة واحدة، لتسدَّ عليه الطريق.

٢

في شبابي كنت مولعًا بالسفر، وحملني رأسي وهوسي الطائران آنئذٍ إلى لندن، التي يسميها العرب عاصمة الضباب، وكانت سماؤها صافية في ذلك الأسبوع. أول ما فكرت في زيارته هو حي سوهو. عرفته من قراءتي لرواية لكاتبٍ إنجليزي يُدعى كولن ولسن، عنوانها: «ضياع في سوهو». تجوَّلت في أزقته الوسخة نهارًا، وتفرجت على دكاكينه، وفي الليل هبطت إلى بعض أقبيته حيث العربدة وموسيقى وألوان صاخبة. أذكر أن ما ضيَّعته فيه حقًّا هو هدوء دماغي، وجنيهات ابتزَّت مني، وحقيبة يد اختطفها لصٌّ عابر، وفي الأخير ثقتي بهذا الكاتب الذي لم يكن إلا موضة نقلناها مبهورين إلى العربية، دأبنا دائمًا مع الموضة!

٣

بقيت أسافر عمرًا كاملًا، أنتقل بين البلدان، كأني إيزيس تجمع أشلاء زوجها أوزريس، وفي كل مرة أقول إنها الأخيرة، يلزم أن أضع حدًّا لنهمي من ملذات الحياة، فهي لا تنتهي، والإنسان فانٍ، عليه ادخار نفسه لما هو أهم. لكن ما هو الأهم؟ وبينما لا يتوقف بحثي عن جوابٍ للسؤال، كنت أواصل الترحال في البلاد، وفي الأجساد، أيضًا، عشَّاقٌ ملَّالٌ أنا، لم أعرف الجوع يومًا، إنما لا شيء يشبعني كذلك، وهذا لا يفهمه رجال ونساء كثيرون عاشرتهم، يقنعون بما تيسر، فيما أشعر أني كلما كررت تجربة سأضيع كما في الماضي، لذلك أقول كفى، لذلك قررت من بين أمور أخرى، مثلًا، أن أتوقف عن السفر، ولو على سبيل التجربة.

٤

منذ أسبوعين وصلتني دعوة من تونس للمشاركة في ندوة ثقافية. ترددت طويلًا قبل الرد لأن أغلب هذه المناسبات مضيعة للوقت، ومسرح فرجة للثرثرة والنرجسيات، ولأن السفر إلى أي بلد عربي محفوف بأي شيء يمكن أن يداهمك. كان المضيف لطيفًا، ولي معرفة سابقة بالمكان، وموضوع الندوة لا يخلو من أهمية، فقررت وضع حدٍّ لخمولي، وإلا سيتحوَّل إلى وسواس. قرأت أن الخوف من الضياع فوبيا، وإذا استسلمت له سأحتاج إلى مساعد في كل حركة إلى الخارج. ثم إن مدينة قابس مقر الندوة، سكانها طيبون، وهي فسيحة، بين الساحل والصحراء، والواحات القريبة منها تفتح النفس على الطبيعة والسكينة، وهذا بعض حاجتي.

٥

لكن ذكرى محددة من زيارة سابقة لقابس أدارت رأسي. تقع المدينة على الساحل الشرقي لتونس، أي على البحر الأبيض المتوسط. من نافذة غرفتي كنت أشرف على البحر حين رأيت شخصين يمشيان على رأسيهما. هما عاقلان لا بهلوانان، وأنا أعرفهما، ولَمَّا واصلا سيرهما فكرت أن الأرض إما انقلبت وإما رأسي هو المقلوب. قضيت وقتًا لا أميز، وما أزال، رغم أن أولاد البلد أفهموني أن هذا طبيعي، لأني اعتدت رؤية موقع المتوسط في الشمال، وهم يرونه في الشرق، ليس غير. بعد ذلك ضعت في قابس، وذكراها عندي ضياع.

٦

عاد خوفٌ آخر ينتابني من تلبية الدعوة. مذ متى لم أزر تونس؟ وجدتها سنوات ممتدة ورائي. خفت من ذاكرتي، خفت في الحقيقة من ذكرى محددة جعلت بلدًا بأكمله يشخص فيها. ما هو بشعر، وإنما هي امرأة احتكَّت ذراعانا صدفة بالسوق العربي بالعاصمة، واعتذرنا لبعضنا في وقتٍ واحدٍ، فتشابكت عيوننا، وما أذكره بعد ذلك هو أني سرت خلف ملحفها الأبيض، أقتفي خطوها بين أزقة وممرات إلى أن ولجت بويبة وهنا التفتت فتبعتُ نظرتها، ولا أعرف كم قضيت في عَرصتها الخفية، ولا أين تقع، عجزت عن الجواب بعد أن عثر عليَّ مضيفي أسبوعًا بعد ذلك وأنا في حالة هذيان أقول لهم إن بلدكم يخطف فيه الجان الإنسان!

٧

في مرة سابقة، هي الأخيرة، ذهبت إلى مدينة في جنوب تونس. ركبت مع مسافرين آخرين سيارة أجرة. كلما قطعنا عشرين كلمترًا يوقفنا الدرك ليتحقق من هويتنا والسائق يضرب أخماسًا في أسداس. أوقفنا ربما عشرين مرة، لا أجرؤ أن أسأل ما يجري، بينما الركاب وجوههم صفراء. ظننتني سمعت مَن يأمرني: «عليك أن تخاف مثل هؤلاء، أو سنضطر لتخويفك!» طلب الدرك من السائق أن يغيِّر وِجهته، فمضينا في طريقٍ محفور، مترب، وأشعرنا المرعوب بعد ساعة أنه ضائع، وبعد ساعة أن هناك أملًا، وبعد ساعة درك جدُدٌ يسألوننا لماذا نسلك طريقًا جانبيًّا، ولم أخَف حين سألوني عن هويتي، لأني كنت نسيتها!

٨

حين انتهت ندوتي في قابس ركبت القطار الصباحي المتجه إلى العاصمة. كان هناك عددٌ كبير من المسافرين، وقاطرتي مكتظة. إلى جواري جلست سيدة ترتدي بنطلونًا وتضع على عينيها نظارتين سوداوين. لم أسمع تنفسها، رأيتها في قاعة الندوات مع الجمهور، لا تكف تظهر وتختفي، لا تكلم أحدًا. غفوتُ دقائق ولما فتحت عيني لم أجدها. بحلقت هنيهة أمامي، استدرت، لكني لم أجد أحدًا في قاطرتي. مرَّ بي جابي التذاكر فسألته عن المسافرين. نظر إليَّ متعجبًا، قائلًا إني المسافر الوحيد منذ مدينة صفاقس، وسنصل بعد قليلٍ إلى قابس. ماذا؟ لكن وجهتي العاصمة. – من الأفضل أن تنزل إلى الجنوب، لأنك في الشمال ستضيع، كالعادة!

٩

لما أعلمت صديقي بن يوسف بنيَّتي السفر إلى تونس لم يملك نفسه من العجب: وبلدك المغرب، الذي لم تزُره منذ سنوات؟! سهمتُ فرشَّني بماء، ظنني أغيب، فعدت إليه متلعثمًا: الـ...مغـ...رب؟ مـ...غـ...ر...ب؟ ولكني في المغرب، هه! ثم أين يقع المغرب، هه؟ ثم إني شاهدت في التليفزيون أن مغربك سيُفوَّت إلى شركات أجنبية تستثمر فيه أنواعًا مستحدثة من البشر والمزروعات، و... فقاطعني بن يوسف: هذا هذيانك، أنت هنا، ولست هنا، وسواء ذهبت إلى تونس أو إلى المريخ فلن تعثر إلا على ضياعك؛ أنصحك ابقَ هنا، ولنتعاشر حول ما لم نجده!

١٠

كان يجدر بي أن أتبع نصيحته؛ إذ لما نزلت في محطة قطار تونس العاصمة لم أجد مَن توقعته ينتظرني. رأيت ركابًا ينزلون من قاطرات أخرى، وهم يسرعون، وفي الخارج يختفون في سيارات وحافلات وعربات ترمواي وشاحنات يقفزون إليها أو يُلقون بداخلها مع أناس آخرين عابرين أو مسحوبين من رءوسهم وأرجلهم، وفي الجو دخان وغبار، أو هكذا خُيِّل إليَّ، فتذكرت طبيبي النفسي الذي نبَّهني إلى أن كثرة التفكير في القهر يورِّث الغم، وقد يدفع إلى الرأس خيالات وسيناريوهات فتختلط على الواحد الحقيقة بالخيال، وقد يخرجه — لا قدر الله — من سوق رأسه!

١١

لكني كنت متأكدًا من وجودي بتونس، وليس بأي عاصمة أخرى، وهذا ببساطة لأني رأيت بأم عينَي صورة كبيرة لرئيس دولة هذا البلد منصوبة في ساحة أمام المحطة، ثم رأيتها معلَّقة في كشك صحف، هي ذاتها في الصفحة الأولى، وطار الشك لما سمعت غناء صليحة تهدهد النهار قبل الليل من مذياعٍ قريب، ثم لما نزلت من التاكسي في شارع بورقيبة، فغمرتني موجات عاتية من النساء والفتيات، غاديات رائحات، بألبسة خفيفة، ووجوه حسنة التقاسيم، وحركات مرحة، وهن واثقات من غنجهن، يُغِظن شبابًا منتشرين على أرصفة المقاهي يتحاورون بلغة الشتائم، وهم يرشقونهن بالغزل البذيء؛ قلت أين يوجد هذا الرونق إلا هنا في ...

١٢

«صلِّ على النبي!
صلِّ على النبي!»

دارت الأرض، والله، بي، الزقاق المتفرع عن شارع بورقيبة امتد عنقَ زجاجة دخلت فيها (هل خرجت؟). دارت السماء فوق رأسي، أم صرتُ أسبح في علاها، وعلى شباك فسيفسائي القضبان ركزت النظر لأحافظ قليلًا على توازن اختلَّ، أقبض بقوة حزام حقيبتي كي لا أفقد الجاذبية. الماضي والحاضر والمستقبل اجتمعت كلها في هالة استوقفت المارة، وأنا منهم، فخروا رُكَّعًا سُجَّدًا لها. فركت عيني لأميز صحوي من المنام، فما عرفت من الصحو إلا أنهما انشدَّتا إلى الهالة، ربما انقذفتا عليها، قد خرجتا من محجريهما، وغادرتا الوجه الذي يحملهما، والجسد ما عاد الجسد، تلاشى، أو بقي واقفًا في فراغ الزمان والمكان، لا شيء بعد!

١٣

أحسست بيدٍ تمسك بي، لتقيني من السقوط في اللاشيء، كانت يد عبد الرحمن (الربيعي).

انتبهت أنها يده: ها (أبو حيدر) أنت هنا! تأكدت مجددًا من وجودي في تونس، فها هو البلد الوحيد وأهله الذي يئويه بعد أن ضاعت بلاد كان اسمها العراق.

– على رِسْلك أبو شهاب، ألم تسمع الصوت: «صلِّ على النبي!»، هل ضاع لسانك، وقد انعطف منك قلبك، أم نزلتْ على عينيك غشاوة؟!

في المرة الثانية، وكمن يدعم جدارًا آيلًا للسقوط أحاط ذراعه بذراعي، أكاد أرتخي عليه بجسدٍ متداعٍ، بينا عنقي ملتوٍ كله إلى الخلف، إلى الجهة التي صدر منها العجب.

– يا بو شهاب، ألم تسمع «صلِّ على النبي؟!»، أنت الذي كلك حس وإحساس، لبِّ أولًا، لب!

١٤

كنت قبلئذٍ قد انخلعت من جسدي. هذه امرأة، لا بل جبل وبركان وإرم ذات العماد، والحسن الذي تشبَّه به القمر. يراني عبد الرحمن أذهب إليها والجنون قدامي خارج من عيني.

أراني جمعت عطشي وجوعي وشبقي وأشواقي، إيماني وقلقي، وأهوال أحلامي، ودخلت بحرها أخوض عبابها، أتخبَّط في موج عرقي، لما لم يبقَ بيننا إلا شعرة هتفت: «صلِّ على النبي!» وفي جوفي «اللهم صلِّ عليك يا رسول الله» لا تخرج، ولا أي كلمة تقال أو تنفع، ... إلا صوت جابي القطار يطلب مني: انزل يا أستاذ، وصلنا إلى تونس، إنها نهاية الرحلة!

Strangers in The Night

١

توجد في قرطبة الأرجنتينية، مثل عديد مدن بالأرجنتين، ميادين كثيرة، ومدارات واسعة. هي منعطفات وملتقيات تتقاطع عندها شوارع وأزقة، فتراها تصبُّ فيها كما تصب الجداول في النهر الكبير. تشهدها محاطة بالمتاجر وباحات المقاهي، ومزدانة بأحواض العشب النظيف، والأرصفة الممتدة حواليها صقيلة كالمرايا. أما نظافتها فعزَّ نظيرها، لأنك حين تشهدها لا تملك نفسك من المقارنة، وبمجرد ما تقارن يمكن أن تتورط، كما أتورط أنا عادة، لأنجر إلى ما لا يخطر لي أحيانًا على البال.

٢

لا أتصور أن الساحة التي أعجبتني في قرطبة الأرجنتينية لها ما يشبهها أو يضاهيها، وقد اقتنعت في إعجابي بها، وبمدينتها، حدًّا أني قلت: هذا مكان أستطيع العيش فيه بهناء، وقضاء ما تبقى من العمر هنا. أنسى كوني عشت وما زلت أتقلَّب في أيما أماكن ومضاجع أخرى. في البداية حسبت ارتياحي من اتساقها وحيويتها المفرطة، وكثرة ما تحويه من محلات مبهجة، ثم تبين لي أن هذا لا يكفي؛ إذ ثمة ما هو أبهج منها وألطف اتساقًا، وإذن أين يكمن الفرق؟ ما الذي يصنع جاذبية المكان، يدفع إلى الارتباط به، أحيانًا مطلقًا؟ وماذا؟

٣

مددت رجلي براحة، وأنا مسترخٍ في باحة مقهى (توريتو) بساحة (أوسموس) في قرطبة الأرجنتينية، تتجاذبني هذه الخواطر والمساءلات. الأرجح عندي أنه الإحساس بالمكان هو

ما يربط الكائن به: إنك تراه، تشمُّه، تُقبِل عليه، تشتاق إليه، فأي توقع، أي لهفة، أي وحشة في الغياب، أي غبطة وامتنان بالعودة إليه. ثم، وأنا أمد رجلَي أكثر أبعد عن مربع الطاولة فتهتز بحركتي وتنقذف القنينة الموضوعة فوقها، متكسرة شظايا حولها، لأهتز بدوري كأنما منتَزعًا من سبات، لأقول بأن هناك بالتأكيد شيئًا آخر متواريًا في الخلف، لا يبين إلا مواربًا، أو مخاتلًا ومختلسًا، وهنا بالصدفة رفعت عينَي فاختلست …

٤

قبالتي في أقصى الساحة، من جهة اليمين مبنى أسطواني الشكل، يئوي متجرًا ضخمًا باسم Osmos يرصِّع أعاليه بالنيون تكوينٌ لملاكٍ ينفخ في مزمار، وصورة راقص بالنيون.

أسفل المبنى لا تتوقف حركة الدخول والخروج من الزوار والمتبضِّعين، بينهم نسوة كثير. زرت المكان بخيالي، فتفقدتُ أجواءه، ولا أعرف كيف قفزت إليه لأزوره حقيقة فوجدته مطابقًا لتوقعاتي: مليء بمتاجر للساعات والثياب والأحذية، وباحة واسعة لالتهام الهمبورغر، ولم يختلف إلا في المدهش فيه، والمحزن، أيضًا، فهنا كان مسرح قائمًا بأبهة؛ آه، هنا كان!

٥

كلا، إنما زال مسرح وحلَّ عوضه آخر. أين؟ هنا، في هذه الساحة بالضبط. أنا، ومَن حولي، والجالسون في باحة المقهى، والعابرون، وسواهم ممن لا أرى، وهم يروننني حتمًا، نحن جميعًا ممثِّلون، لا بد أن لكل واحدٍ منا دورًا، سواء عرفه أو جهله، وعاه أو أنكره. بالنسبة لي، رغم إنكاري فعل التمثيل، وشخصية الممثل، أحس أن وجودي هنا، جلستي في هذه الساعة المسائية الرائقة، في هذه الساحة الضاجَّة والمُبهجة في آنٍ، بمدينة قرطبة الأرجنتينية، ترتبت بالصدفة والقصد معًا، ليتكوَّن منها شيء ما، أو لتولد بعض الصور، والتمثيل صورة مثل الحياة، وإن احتاج إلى ضرورة التركيب، تركيب الصدفة، مثلًا.

٦

قبل أن أحسَّ بما يلمس يدي المبسوطة على فخذي كنت قد رمقته قادمًا عن بُعد. نظرت أولًا إلى عمود تبديل إشارات المرور. أنارت الإشارة خضراء، فانطلقت السيارات الواقفة

تعبر، ليقف المشاة ينتظرون. بدا لي أنه متعجلٌ يريد استباق العبور، ثم وهو يتردد قبل العبور، رغم إضاءة العلامة الحمراء في وجه السائقين. رمقْتُه يتلفَّت أكثر من مرة، بانتباهٍ، بحذرٍ، بل بحذرٍ زائدٍ، يقدِّم خطوة ويؤخر أخرى، ثم بعد لأي يعبر نحو الرصيف المفضي إلى جهة باحة مقهاي، ليضيع مني وسط كثافة المشاة.

٧

عدت أنجذب إلى الجدارية الكبرى لمتجر (أوسموس)، لا تتوقف في بوابته حركة الداخل والخارج. عيناي تدخلان معهم، قدماي تمشيان برفقتهم، رغباتي تترافق ربما برغباتهم، أو تشذ عنها. حاجتي وحرماني، لو وُجدا، بعض حاجتهم. ألهث بالنظر. ألحس ما يُرى، والخفي مما لا يُرى. أستنفر مثلهم مكبوتي، ولا شيء يشبع مطلبي. لا أكف أدخل وأخرج من المبنى التجاري، أصعد، أهبط في درج المسرح القديم، أخيرًا أركب جسدي بفحيحه، وحوحاته، شدِّه وجذبه، وأخرج، تخرج عيناي لتقابلا الساحة من جديدٍ.

٨

هما عيناي تفعلان بي، كالعادة، الفعائل، هما! دليلي التصاق جسدي بالكرسي التصاقًا، ويدي على الكأس قابضة، بينا دخان السجائر من الطاولة المجاورة يقتحم وجهي. دليلي اللمسة. ما هذه اللمسة؟ هل هي يدٌ تربِت؟ أم لسان يلعق؟ أم أصابع تتحسس؟ اللمسة. لا معرفة لي بأي امرأة هنا، وفي هذ البلد بالذات، لتأتي فتتحسسني، وتؤنس غربتي المؤقتة، أو لعلَّها فاتنة غيرها جاءت تراودني عن نفسي وقد لاحظت وحدتي، ورصدت شبه قلقي وهواجسي، لكن، مَن أنا لتأتي وتفعل شيئًا من أجلي؟! هي اللمسة الآن دليلي.

٩

وإذن، هو أنت! سمعته كأنه يقول: أجل، هو أنا، وأنا هنا، وماذا في الأمر. فأواصل: كلا، بتاتًا، أنت حرٌّ في أن تكون هنا، وهنا على الخصوص، حيث أنتم، كما لاحظت، في كل مكان.

فيجيب: طبعًا، في كل مكان، أحرار، نتنقل حيث نشاء، ولا أحد يضيق بنا ذرعًا، رغم أن عيشتنا، خلافًا للظاهر، ليست هيِّنة؛ إذ الحرية لا تهب كل شيء، بل قد تتحوَّل إلى فخٍّ وورطة، والدليل، انظر، ها أنا حر، وتراني أُقبِل عليك، أنت الغريب بالذات، لقد شممتك

من بعيدٍ، والآن أتلمسك، أريد منك أنت بالذات، الحقيقة أني خجِلٌ من الطلب، حتمًا أنت تفهم طلبي يا ...

١٠

طلبت من النادل أن يحضر لي صحنًا مكونًا ... نظرت إليه كأني أسأله ما يرغب ... من شريحة لحمٍ وبطاطس مقلية، وماءً باردًا يناسب حرارة الجو. وضعت الصحن أمامه فأقبل عليه بشهيةٍ ونهمٍ، لا شك لم يأكل منذ وقت. تأكدت من هذا وقد أتى على الصحن، لحسه من جميع جوانبه ليعود إلى أصله أبيض لامعًا. ثم انتقل إلى إناء الماء شربه عن آخره. وبعد أن أكمل غَمَره حبورٌ شديد، فأقبل عليَّ يتحسس ساقَي وركبتَي وهو يتحرك في محيط الطاولة جيئةً وذهابًا، بينا طفق ذَنَبه يتأرجح عاليًا مثل راية في الريح.

١١

لم أنتبه إليه وهو ينصرف؛ إذ انتقل بصري إلى متجر (أوسموس)، إلى مدخله حيث كلب ضئيل وهرِم يلهث من الحر وهو يحاول التسلل إلى الداخل بين أرجل الداخلين، وفي كل مرة يصدُّه الحارس ليعيد الكَرة. تساءلت فطِنًا: عجبًا، من كان ضيفي قبل قليل؟ ثم فكرت بأني لا أستطيع، مهما فعلت، إطعامَ مجموع ساكنة هذا الكوكب، آدميين وحيوانات؛ فالفقر كثير، والجياع أكثر، ثم إنني لو أنفقت كلَّ ما أملك من مال فسأصبح فقرًا، جائعًا بدوري، وسأضطر لأطوف مثل ضيفي السابق، أو غيره، حول باحات المقاهي، أو عند مدخل المتاجر. وقبل الاسترسال في هذه المخاوف رأيتها، وهي التي لا تنظر إلى أحد، كأنها تقبِل نحوي.

١٢

باحة المقهى دائرية، في شكل نصف هلال. عيناي أبصرتاها وهي تنبت من قُنة الهلال، نحيلة كخط الهلال، بيضاء كأبيضه. مرَّت أمامي شبه ذاهلة، فذهلت من ذهولها حدَّ أني لم أتبيَّن كيف ومتى وصلت إلى أخمص قدمي من الهلال، ثم اختفت خلفه في الظلام ... لـ ... تعود فتظهر من قُنته، مرة ثانية ورابعة، من غير أن ألمسها أو تلمسني. وكلما حاولت

بعيني دائمًا، تكون قد أكملت دورة الهلال، انزلقت في منحناه، وأنا أبعث عينَي تجوسان في الذهول، ربما في انتظار ... لمسة ... قادمة.

١٣

عادت رجلاي تتمددان، وإحساسي يشعُّ، وشعوري يتسع بالمكان، لا بل تضخَّمتُ، صرت المكان والزمن والزمان. لا طارئ يشوش على جلستي، واستمتاعي بساحة (أوسموس) بقرطبة، إلا ... ماذا؟ إلا أن قرطبة هذه أرجنتينية، وليست ... ليست ماذا؟ كنت سأنتقل إلى استغراقٍ آخر، إلى دوران في رأسي، كما دار ضيفي قبل قليل، ودارت هي حول نصف الهلال، كدت، لولا سماعي عزفًا دخيلًا على ما كان أصلًا صخبًا متجاوبًا بين عبور سيل السيارات بالساحة، وموسيقى روك هارد منفجرة من قعر المقهى، أو ربما من رأسي، مَن يدري؟!

١٤

جاء عزفه مختلفًا، قادمًا من عمقٍ، من بُعدٍ سحيقٍ، ثم وهو آتٍ يصادف دُغلًا أو أحراشًا، فيخترقها ليواصل، وليصل إلى أسماعنا نحن الجلوس في باحة المقهى. فهو توسطَها، قبالتنا، وشرع يعزف على الترومبيت، بمهارة، لكن بغير ما تعب، يظهر في تصلُّب الأوداج مع صعوبة التقاط النفس بعد أكثر من نفخة على الآلة، واللحن يمرُّ منغمًا، لا شك، وإن متعثرًا قليلًا بين أصابع ترتعش وهي تتناوب على أزرار الترومبيت لتؤدي لحن أغنية فرانك سيناترا الشهيرة: Strangers in the night، وانتهى يدور على الزبائن بصحن يلتمس منهم بعينيه بضع بيزُوات، وهامته شبه منكسرة، يؤكد حالته كتفان واضحٌ أن الدهر أخنى عليهما بكلكل.

١٥

رأيت ضيفي السابق عائدًا من جهة إشارة المرور، لكن دون عجلة، طبعًا فقد كان شبعان. والمرأة الهزيلة قادمة من قُنة الهلال تمارس دورة جديدة، وفيما حسِبتُ العازف غادر، إذا به يعود للظهور، وهذه المرة في نمرة مختلفة. فقد بدا وهو يقنع شابًّا وخليلته أنه عازف كامل لا متطفل، أو شحاذ. الدليل صورته في الجريدة، وقد عزف النشيد الوطني ذات سنة

أمام رئيس الجمهورية، وها هو بكامل قيافته، تلك، وشبابه، ذاك، هذا هو الزمن، وقد دار دورته؛ ولذا فهو مثل الزمن مضطر أن يدور معه، وأن يغني بحرقة، بتعبٍ، ونصَب، أغنية سيناترا …

١٦

عييت من الجلوس فقمت أحرك ساقي، وفكرت بأني أطلت القعود هنا، بعد أن كررت المشروب، وصرنا ننتقل من المساء إلى الليل، وقلت ربما من الأنسب تغيير المكان، رغم اقتناعي، لأمرٍ ما، بأني هنا في أفضل مكان، وأن المَشاهد التي رأيت تكفيني هذه الليلة، وربما للأيام القادمة، فلا داعي للتغيير ولا للدوران. هم مضطرون له، أما أنا فشخص سائح، متفرغ للحياة، ولا يبغي، بقدر ما يعي ويملك، أفضل مما هو فيه، وإذن فأنا حِلٌّ من متاعبهم، ويكفيني أن أؤدي الدور الموكل لي الليلة في هذه الساحة، وحتى في الحياة برمتها، وليذهبوا هم إلى …

١٧

أردت أن أقول الجحيم، فلم أكمل الكلمة، كأنما هناك شخصٌ غيري يسكنني ألجم نطقي فكفَّ عن الدنيا لساني. هو عينُه من جعلني أحس بالتخلخل في وقفتي، وبذر الشك في يقيني لأصبح أكثر من شخص يريد له مؤلف ما أن يمثِّل دورًا في مسرحية أو قصة عابرة، متسائلًا إن كان حقًّا منسجمًا في وضعه، مكتفيًا برحلة السائح، متصالحًا تمامًا مع نفسه والعالم عبر جلسة اتفاقية في ساحة مدينة من مدن العالم المبهجة، من غير شكٍّ، لكن البعيدة عن أراض أخرى هو أعلم بها، وأناس أعلق بالوجدان والذاكرة … ثم ماذا؟ ثم ماذا؟ ماذا بعد؟

١٨

لم يتركني أكمِل منطقي، فتصدَّى لي: هذا هَوسُك، رومانسيتُك لن تفارقك، هي ومحليتك، بينما العالم واسع جدًّا، والبشر كثير متعددون، متنوعون، والحياة شاسعة الآفاق، وهذا البهاء، هنا في قرطبة أين ستجد أفضل منه، وهذه المتعة التي ستتأجج بعد قليلٍ في الليل، أو تعرف أقوى وأعذب منها. لا تبحث عن السعادة أبعد من أرنبة أنفك، والمتاح لك هو

مالَك حقًّا، وسواه حلم فسيح أحلم به إن شئت، لكنه ليس لك. الأرض التي تجد فيها السكينة هي أرضك، وحيث تلفي كرامتك، وترفع هامتك، وتلقَى من يضمك إلى أعطافه بصدقٍ، فذاك وطنك، أجل.

١٩

سمعت خلفي تصفيقًا متواصلًا، وكنت أعطي ظهري للساحة. فلما التفتُّ لأستطلع السبب رأيتهم هم ثلاثتهم، ضيفي وسطهم، يواصلون تصفيقهم، الظاهر أنه خاص للاحتفاء بي، ربما لما قلت، أقصد لما كان يساورني، فأيقنت أنهم مسكونون مثلي وليسوا على شاكلة من رأيت في البداية، أو في الأدوار التي أدوها على حدة في الساحة، وإلا كيف يسمعون الكلام الصامت، ويتبدَّل هندامهم بالسرعة التي أرى، حتى الكلب ضيفي يرتدي حلة سموكينغ تحسبه يترجَّل إلى سهرة، ودعك من المرأة الضامرة استقام ظهرها، والعازف اسودَّ شعره وزال انكساره، وأنا، أنا زرعوا ألف شكٍّ في يقيني فاهتز مني كلُّ يقين، وقبل أن أسألهم لم أستحق هذا التصفيق خطر ما ليس في الحسبان، حسابي على الأقل؛ إذ دارت عليَّ الدوائر.

٢٠

الكلب والعازف والمرأة، وأنا، طفقنا ندور حول كل واحد منا، حول بعضنا البعض. شيئًا فشيئًا أخذ جمهور متكاثر يقبل على الساحة من شوارعها وأزقتها المتفرعة، فحصل اكتظاظ شديد نجم عنه توقف حركة المرور، والتصاق السيارات ببعضها كالأجنة في الأرحام. المدهش حقًّا هو حين شاهدنا في أعلى بناية (أوسموس) التجارية الملاكَ العازف، والملاكَ الراقص، والملاك الأخير، الذي فرد جناحيه وقال اصعدوا، وقال أيضًا: صحيح الحياة هنا جميلة، مبهجة، لكنكم، بالرغم من كل شيء، غرباء؛ لذا سآخذكم إلى قرطبة ... الأصلية، قبل أن يلتفت إلى عازف الترومبيت ويطلب منه: والآن اعزف لنا لحن سيناترا من فضلك، ورافقناه نحن نغني:

Strangers in the night exchanging glances
Wondering in the night
What were the chances we'd be charing love
Before the night was through.

اليوم الثالث قبل الأخير

١

هكذا فاجأنا السيد بونوا، ووجدناه واقفًا في ركنه المعهود، لكن من غير الوقت المعهود. كنت منهمكًا في قراءة الصحيفة المسائية، منجذبًا إلى حوادث السرقة، وحركة إضرابات العمال احتجاجًا على إغلاق المصانع، والاعتداءات المتزايدة للتلاميذ على مدرسيهم، وما إلى ذلك مما أصبحت تعجُّ به باريس والضواحي، الضواحي خاصة من حوادث مقلقة. أتصفح هذه الأخبار، وأحمد الله أني أسكن بعيدًا عن هؤلاء القوم، وأستطيع أن أعود إلى بيتي كل مساء، وبعد أن أعرج من عملي على هذا المقصف، أتناول ما تيسَّر من شرابي المفضل، ثم أفرنقع بسلامٍ، عمومًا مثل كل هؤلاء الناس الذين هم هنا هذا المساء، وكل مساء تقريبًا.

٢

نحن نعرف بعضنا، والأغلب بالنظرة، نتبادلها إما بالصدفة، أو خلسة على الأكثر. الزبناء متعجلون من أمرهم، ربما يخافون إن انتقلوا إلى سين وجيم أن تتطور العلاقة، وسيتبادلون الأنخاب، ويثرثرون، وربما بعد ذلك يختلفون، في السياسة خاصة، هذا اليمين، هذا اليمين المتطرف، هذا اليسار، هؤلاء الخضر، أولئك الجن الأزرق، لا، لن يتشابكوا، هم متحضرون، إنما الغضب، الخصومة، وصاحب المحل لا يحب هذا، ويتظاهر بالحياد، رغم أنه يميني مقيت، ليكسب الجميع ويبقوا هنا، مثلما هم موجودون هذا المساء، وكل مساء.

٣

وبونوا يعرف جميع مرتادي المحل، واحدًا، واحدًا، وبالاسم أيضًا، وكل نادل له به علاقة خاصة، لأظن أنه يرشوهم ليحملوا إليه أخبار العالمين، لهَوَسِه بمعرفة كل ما يجري حوله؛ لذا سمعت أحدهم يلقِّبه همسًا بالغستابو الألمانية، وهو لا يعبأ بأحدٍ لأنه زبون محترم عند نفسه، يستهلك هنا جيدًا، وليس مقترًا على نفسه مثل من يقفون ساعة وراء الكونتوار يشربون قهوة أو جعة فاترة وهم يقرءون صحيفة المحل، وفوق هذا هؤلاء السفلة يتأفَّفون من الطقس وكل شيء، ولكن من يستطيع أن يرفع نحوه نظرة استغراب أو استنكار، حتى وهو يلعن جهرًا اليمين واليمين المتطرف، والوسط، واليسار طولًا وعرضًا، وجميع الألوان الأخرى، مَن؟!

٤

مثل السيد ألان، والسيد دولابروتاني، والسيد بولانجي، فللسيد بونوا كيسيل، الملقَّب عند خاصته ببوني، عاداته يلتزم بها حرفًا، ولم يلاحظ أنه أخلَّ بها يومًا، على كلٍّ فالنادل الرئيس أنطوان، يحصي حركاته وسكناته، يكون يترقبه من أول خطوة يضعها في المقصف إلى لحظة مغادرته، وهو ما زال واثقًا من توازنه، يسأله من الباب، وإذن يا بوني: Comme d'hab، كالعادة، ولا يرد عليه، يقبِل نحو الكونتوار ليجد كأس الريكار مسكوبًا بجواره آنية الثلج والماء، يعبُّ الكأس الأولى، ثم يشرب الباقيات على مهلٍ، وهو لا يكف يجيل النظر في محيط المكان، مُصدرًا تأففًا خفيفًا، تحسَبه ينفِّس عن همٍّ ثقيل، مثلنا جميعًا، بل ربما أكثر.

٥

في الحقيقة لا ألتقي بوني أيام الأسبوع إلا لمامًا، ويوم الأحد دائمًا حين نتراهن على الخيل والكلاب، أحيانًا، فأنا زبون مسائي، لأني ببساطة أعمل في النهار، ولا يحلو لي الشرب في ضوئه، وخاصة لأني أحب الليل أستريح فيه، ويكون الزبائن الذين يتشاجرون لأي سببٍ قد غيَّبهم السبات، أو وقعوا — على الأغلب — تحت نعال زوجاتهم طالبين السلامة وحسن العاقبة، أما أنا الأعزب فأتمتع بالمقصف كاملًا، ويخدمني نادل النوبة على خاطري، أشرب كأسي، أيضًا، من غير أن أضطر للتعليق، لا على الطقس، ولا اليمين، لا الوسط، ولا الجن الأصفر!

٦

في يوم الأربعاء السابق، أي مثل هذا الذي أجلس فيه لأدوِّن هذه الحكاية، والساعة الثامنة، وبين يدي صحيفة «لوباريسيان» الشعبية، وأمامي جعَّتي من نوع ١٦٦٤، ونحن أربعة خلف الكونتوار، وبضعة حول مناضد متفرقة، وفي الخارج مطرٌ نثيث يلائم نهاية شهر مارس، والنادل مبتئسٌ لقلة الزبائن، والنادل ها هو يفتح فاه واسعًا، كنت أنظر إليه وحده دون سواه.

فتساءلت لمَ انقلبَ فجأة دهِشًا، وهو ينظر مركزًا إلى شخص يعرفه، كأنه يريد أن يتأكد منه، وأنا لا أنظر إلى الشخص، ولكن أسمع صوته ولا أصدق أنه هو، أو أستبعد، لمَ لا أستغرب، رغم أني صرت أقول إن لا شيء بات مستغربًا في عالمنا اليوم، بما في ذلك، أجل، لِمَ لا، بما في ذلك دخول السيد بونوا ووقوفه بيننا وهو يومئ طلبًا، غالبًا، لمشروبه الاعتيادي.

٧

غطست في صحيفتي، متجنبًا أن أحرجه، فلا شك لاحظ استغراب النادل الليلي، وهو له نوبة نهارية، ومن مخبريه المفضَّلين، هو نفسه الذي تطوَّع مرة ليعلن استنكاره وحشة بوني، تأفُّفه الدائم، بينما هو شخص ميسور، شقته يملكها، وكل شيء على ما يرام، و... يتوقف لا يحب المضي أبعد عندما يقول: لولا ... يعضُّ على كلماته، يقطعها، تنحبس في حلقه، يستأنف: أنا لا أحب النميمة ... لولا ... لا أحبها، ربما هو يحبها، وهي لا تحبه، [من ترى تكون هاته؟!] وظل يدخل ويخرج في كلماته، وأنا، أيضًا، لا أرفع رأسي عن «البارسيان»، وأحدس أن جميع مَن يقفون هنا من رجالٍ هذه الساعة يدور في رأسهم أكثر من سؤال.

٨

«في الحقيقة أنا ...» سمعت العبارة قريبًا مني، فصاحبها على بُعد خطوتين فقط، وكما تبادلنا النظرات وظللنا صامدين في موقعنا، كالعادة، بلا سلامٍ ولا كلامٍ. تنزَّلت العبارة في كلماتٍ منفصلة، هادئة، تظنها مُقطَّعة بالمقص قطعة، قطعة، لتعود تتردد خارجة من فم

صاحبها الذي لا أحتاج للنظر إليه لأعرف من هو، فهذا صوت بوني الذي لا يتوقف عن التأفُّف يسري الآن بهدوء، بسكينة، وبتردٍ كذلك، بينما يشتم عادة بغضبٍ جازمٍ ولا يعبأ ... «في الحقيقة لا شك أنك ...» كان الكلام موجهًا لنادل الليل الذي أراه يحاول تجميع تركيزه، يرى — للمرة الأولى — زبونًا نهاريًّا كبيرًا منذ سنوات وهو يقف أمامه في هذه الساعة، وهو يرتعش!

٩

«في الحقيقة، إنها كلير ...» لم يُسأل ما بها، ليواصل ما بدا بَوحه، والنادل يظن أنه يسرُّ له: «إنها كلير سافرت، قبل قليل سافرت ...»، وينقطع الكلام، صاحبه ينظر إلى نقطة غير مرئية في البعيد، وأنا أراه قريبًا مني، يمرِّر أصابعه على شعره الكثيف، ثم يلتقط نفَسَه: «هي سافرتْ إلى الجنوب ... وسـ ... تغيب ...». هنا لاحظت النادل قد انشدَّ إليه، سمع ما روَّعه، ظننته بدوري مروعًا فنظرت إليه بلا مواربة، وهو ما فهمه للتوِّ فانتقل مباشرة يهدئ روعنا، بينما نبرة صوته تزداد خفوتًا، أقرب إلى الصمت والاستسلام لما لا نعرف: «أوه، لا خوف، بتاتًا، ليس ما قد يخطر بالبال، كلا، ... أجل، هي سافرت»، وباسترخاء أضاف: «وستمضي ثلاثة أيام في السفر» ثم بعد أن جمدت شفتاه ثواني، عاد يقول، لكن هذه المرة مدمدمًا: «وبعد ثلاثة أيام، ستعود طبعًا.»

١٠

لا تكاد تعرف هل قال عبارته الأخيرة غاضبًا أو مستسلمًا، لأني لاحظت وجهه المحمر دائمًا بفعل إدمان الخمرة، يزداد احتقانًا، وقد تدلَّى رأسه على صدره وهو يطلب كأسًا أخرى. هو الذي بادر بالطلب ولم ينتظر، خلافًا لعادته، أن يجدد له النادل مشروبه. عبَّه بسرعة كالأول منشرحًا هذه المرة، ثم شرع يفرك يديه، ويتململ في وقفته. خفضت بصري أتجنَّب عينيه تحومان حولي، فيما كان من قبل يتجاهل حتى وجودي، عمومًا هو يزدري كلَّ مَن لا ينحدرون من إقليم الألزاس؛ هؤلاء عنده هم أصلاء فرنسا والشجعان. سأل النادل بنبرة ودٍّ، وإن بتعالٍ: «قل لي، أنت من الجنوب، هل تعرف هذه النقطة من الأرض التي تبعد ثمانمائة كلم عن باريس، قرب الحدود، عند هونداي، إنها على طرف لساني ...»

١١

استجاب له النادل شبه المتعطل هذا المساء، بسبب قلة الزبائن، بسرعة، وأخذ يفكر معه، وهو ينكش رأسه: أظن، أظن أنها بلدة سان جان ... اسم كهذا.

– تقريبًا، المهم هو كم ساعة يقضي القطار ليصل إلى هناك، القطار السريع.

– أوه، ست ساعات أو خمسًا، لأن السكة ليست كلها مهيأة للسرعة، منها ما لا يقل عن مائتين سكك عادية، والشركة تجعلنا ندفع ثمن السريع، تصور!

– وهل الطريق المؤدية إلى بلدتكم آمنة، بلا مخاطر؟

بدا النادل لا يفهم، فاستأنف بونوا ينوي التوضيح: أنت تعلم أن الأمن مشكلتنا اليوم في فرنسا، خاصة مع هؤلاء السود والعرب الذين يهجمون من الجنوب، وكلير، زوجتي، سافرت قلِقة، ومضطرة، فشجعتها على السفر رغم أني أخاف عليها ولا ...

١٢

وبما أنها سافرت، قلت لمَ لا أغيِّر الجو، وأتناول كأسًا في الخارج، ها أنت ترى، ما رأيك؟

لم يكن يطلب في الحقيقة رأي أحدٍ، فهي مجرد طريقة في الكلام، وهو يكلم نفسه، وإن لم تخلُ حالته من رغبة في أن نستمع إليه، فأظهرتُ الاهتمام الذي راقه فواصل: «وهي فرصة فعلًا للتغيير، كلير لا تمنعني من الخروج ليلًا، لكن، وبما أنها سافرت فما المانع، ما قولكما؟»

لم نعلِّق، لا أنا، ولا النادل، منبهرين بالحبور الذي يغمره، ويدفعه لمواصلة عبِّ الكئوس، حتى أدهشني منه إشارته للنادل يدعوني لكأسٍ على حسابه، وقبل أن أعتذر رفع نخبي مردِّدًا عبارة فغر لها فمي: «بصحة صداقتنا الجديدة!»

١٣

«هل تعتقد أن طريق الجنوب آمن، سمعت أن خط السكة الحديدي يتعرض لإتلاف، وماذا لو زاغ القطار عن السكة؟! يا إلهي، يمكن أن يقع ضحايا، ماذا لو أن أحد المسلمين الكاميكاز فجَّر جسمه وسط الركاب، كما حدث في إسبانيا، ومات مائتان، تطايرت أشلاؤهم، هوب؛ كلير قد تكون منهم، تصور قطارًا بسرعة ٣٠٠كلم في الساعة، ماذا سيبقى منهم، منها، عندئذٍ ستمتد رحلتها إلى الأبد، وليس ثلاثة أيام فقط ... وكيف سيصبح العيش

بدونها؟ هل سأتحمَّل فراقها؟ أظن أني أبالغ، ربما سرعة القطار أقل بكثيرٍ، إنما لِمَ هذه الأفكار السوداء؟! لا شيء، وفي الوقت نفسه كل شيء محتمل، محتمل جدًّا؟»

١٤

«هه، ما رأيك؟» كان يخاطب النادل مباشرة هذه المرة. «رأيي، في ماذا؟ معذرة مسيو بونوا، كنت مشغولًا مثلك بزوجتي، هذه التي لا تصدق حين أخبرها بأن لي نوبة عمل ليلية، إضافة إلى النهار، تطوف بذهنها الشكوك، النساء هكذا هن، لا يفكرن إلا في خيانة أزواجهن لهن، وأنا، لكمْ أقسمت لها بأني أشقى من أجلها، ولِتقضي عطلة أطول عند أهلها، هم، أيضًا، من الجنوب، ولا أستبعد أن ترسل أحدًا ليتجسس عليَّ، مَن يدري، فقد تحضر بنفسها لتعاين تواجدي هنا، وسوف تتحداني وهي تتقدَّم كزبون لتتفحَّصني عن كثب. أووه، لكم أغبطك يا مسيو بونوا على هذه الأيام الثلاثة التي ستقضيها بدون شكوك ولا تنغيص!»

١٥

انصرف النادل يلبي طلبًا من القاعة تاركًا بوني يحرِّك رأسه يمينًا شمالًا، فوق تحت، فلا تجزم هل يوافق، أم ينكر، ومن المؤكد أن ثمة ما ينخر دماغه، بينما دماغي أنا في راحة تامة، أخرج وأدخل متى أشاء، لا امرأة تنتظرني لتصدع رأسي، ولا وساوس عن الأمانة أو الخيانة، يكفيني أن أخلص لنفسي، فلا أصير مثل هذا المهبول؛ ها هو يتحرك خطوتين باتجاه الباب، ها هو يتراجع، يتقدم، يتوقف، يتراجع، يلتفت إلى واجهة المقهى الطويلة، خلفها الرصيف يعبره متعجلون تحت نثيث مطر نهاية مارس، كأني بعينيه تخترقانها وتتوقفان عند قامة امرأة كانت تنظر بدورها إلى الداخل ربما بحثًا عن شخص بعينه، ربما عن بوني، أو هو مجرد فضول، كما يفعل السياح والفضوليون، ومَن لا شغل لهم، وهو يتقدم نحوها مرتجفًا، و...

١٦

«من حسن الحظ ليست هي، وإلا لكانت La cata، أووف، أستطيع أن ألم أنفاسي، عليَّ بكأسٍ أخرى، يا غرسون، هذا كله يدور في رأسي، الساعة هي التاسعة، وإذا حسبنا وقت مغادرة القطار السريع في السابعة قد تكون ...، يكون أشرف على مدينة بوردو، وبوردو

في منتصف الطريق إلى الجنوب، من حسن الحظ بعيدة، كلا، ليس قرفًا ولا خوفًا من كلير، إنما من حق الإنسان أن يتمتع بوحده، وهذه المرأة منذ دهر وهي ملتصقة بجلدي، تريد أن نكون مخلوقًا سياميًّا بينما خلق الله الذكر والأنثى منفصلين، لو لم تمُتْ أمها لما تحركت إلى جنوبها، ولبقيت تحضنني كبيضة، بينما صرت هرِمًا، يا غرسون، بربك، هل تراني بيضة؟!»

١٧

في اليوم الثالث وجدت السيد بونوا كيسيل سبقني إلى مقصفي، وأخبرني النادل نفسه، وهو يناولني طلبي، أن صاحبنا محموم، فهو ما يكف يهذي بلا توقفٍ تقريبًا بالأرقام، يعدُّها على أصابعه، منتقلًا من واحدٍ إلى ثلاثة، ومن ثلاثة إلى رقم واحد دفعة واحدة، وفي كل مرة يسألني: «هل أنا متأكد أن وصول القطار إلى بلدة سان جان يستغرق خمس ساعات، وهل وصل فعلًا ليلة أول أمس، وهو لم يتلقَّ أي تليفون من كلير، فربما وقع حادث في الطريق، مخربون أتلفوا السكة، إرهابيون فجروا أنفسهم وقتلوا الركاب، ومنهم هي، كل شيء ممكن هذه الأيام، إنما لا ذكر لهذا في الأخبار، ولعلَّها وساوسي، ولنفرض الأمر صحيح، فمعنى هذا أن حياتي ستنقلب رأسًا على عقب، سأصبح أعيش وحدي ...» وسمعنا صرخة مدوية!

١٨

كل مَن في المحل التفت إلى موقفه، هبَّ مالك المقصف نحوه مذعورًا: عزيزي بونوا، على رِسْلك!

– ولكن هذا الغرسون يعاندني، أقول له نحن في يوم الأربعاء، وهو يقول لي إنه الخميس!

– فعلًا، اليوم خميس.

– أنت أيضًا، تريد أن تجننني!

– كما تشاء، اليوم السبت إن شئت!

– لا، اليوم أربعاء، ودليلي أن كلير سافرت ليلة الأحد، وستمضي ثلاثة أيام، تنقضي الليلة، أي ستعود غدًا، كما سأعود إلى سابق عهدي.

– إنما يا عزيزي بونوا، هي حماك التي تضربك مرة في الشهر منذ ... أم نسيت أن كلير ترقد منذ عام في مقبرة بيير لاشيز، بيير اسقِه كأسًا على حساب المحل، ولنشرب نخب ذكرى تلك المرأة الطيبة!

عين، مثل عصا!

إلى أبطال أمتنا في ميادين التحرير

١

يكون هادئًا، واسع النظرات، منتظم الأنفاس، وهو يصل إلى باحة المقهى. يصل في العاشرة والنصف بالضبط، من صباح كل يوم، أي بعد نصف ساعة فقط من فتح بابها. يكون النادل في انتظاره، أو كأنه ينتظره. مع مرور الزمن تكوَّنت بينهما علاقات دقيقة، بل ميكانيكية.

٢

يصل الرجل الشاب. ينتصب في مدخل المقهى النادل الشاب. يلقي الرجل الشاب نظرة استطلاعية على مجموع المكان، وهو يتجه إلى طاولة تتوسط الباحة في مواجهة الشارع العام. يتابع النادل الشاب زبونَه الاعتيادي وهو يتجه إلى الطاولة ويزيح الكرسي ويجلس، وهو يتنفس بعمقٍ كأنه ينفض عنه عبئًا ثقيلًا أرهقه طويلًا.

٣

لا يطلب الرجل الشاب شيئًا. النادل يعرف طلبه مسبقًا؛ إذ ما يلبث أن يكون قد انصرف إلى الخدمة، إلى إعداد الطلب، طلبه الذي يحتاج إلى وقت: ركوة القهوة تغلي، وجمرات

النارجيلة تحمي، وحين يستوي الشيئان ينقلهما بأناة إلى الطاولة. لا يبدو الشاب أنه معنيٌّ بالطلب؛ عيناه تنظران إلى أعلى حيث لا يوجد شيء، إلا سقف المقهى.

٤

لا يبدو النادل الشاب معنيًّا بما يشبه شرود زبونه، لأنه متعود ربما أن يراه هكذا، ولأنه هكذا، فكل شيء ربما عنده على ما يرام، لأنه متأكد من معرفة المشهد، وبأدق تفاصيله. لذلك يقول إن الأفضل هو ترك زبونه يتمتع بهدوء جلسته، ونكهة قهوة الصباح الفوَّاحة، ومجَّات النارجيلة الأولى ليومٍ جديدٍ … يوم آخر يقول في خاطره، وهو يفكر في شيء ما، بأنه يكسبه.

٥

لكنه لا يترك النظر، لا يملُّ منه، رغم تكراره واستيعابه أسابيع وشهورًا متوالية. يحلو له الاستمرار واقفًا بمدخل المقهى، عينه على زبونه الصباحي المنتظم، كأنه ينتظر منه جديدًا، يتوقع منه فعلًا، أو حركة، أو كلمة، أي شيء يختلف عما أَلِف منه على امتداد الأسابيع والشهور الفائتة. لكن، ماذا؟ هو لا يفعل، لا يتحرك، لا يقول شيئًا، البتة. سوى … سوى … سوى … ماذا؟ آه، هو الذي فعل، هو الذي رأى، هو وحده يعرف، يعرف ماذا؟

٦

تتلمظ القهوة الساخنة بُخارها هنيهة بين شفتَي الرجل الشاب، بينما عيناه تخترقان الدخان المنفوخ من فمه، بعد أن غرغرت نارجيلته، وهما تتجهان نحو الشارع العام، تعبره السيارات في سيولة غزيرة من جانبي الذهاب والإياب؛ لا تتوقفان عن التطلع إلى الأمام في نظرة أفقية مستقيمة تنتهي دائمًا، أو هذا ما يخمِّنه النادل الشاب، عند الواجهة الزجاجية العريضة لمتجر الأواني والفخار المقابل للمقهى في الخط الآخر للشارع.

٧

حين يكون النادل الشاب منهمكًا في إعداد القهوة للزبون الثاني أو الثالث، يكون الرجل الشاب، ذو البذلة الأنيقة دائمًا، بالساعة الذهبية حول معصمه، والحذاء حسن التلميع؛

يكون مستمرًّا ينفخ من نارجيلته، بينما نظراته تكرُّ وهي تتوسَّع حوله، تتحرك وتتنقل كأنما حول محيط دائرة مرسومة في الفراغ، وهو وحده يراها، وحده يتابع، إما خارجها، أو وسطها، مشهدًا ما، مشهدًا يتلألأ ضوءًا، أو شررًا في عينيه، هو وحده يراه.

٨

يكون النادل الشاب قد حمل الطلب إلى الزبون الرابع، الذي حضر قبل قليل، وهو يعود إلى ركن عمله يختلس نظرة إلى الرجل الشاب، يراه ما زال ملفوفًا في كتلة دخانه، فيبادر إلى حمل علبة الفحم، ولا يستطيع إزاحة عينيه عنه وهو يجدد له جمر النارجيلة، وهنا ترتعش يده بالعلبة، وهو يرى الجمر يتقد في نظراته، والمشهد حول الدائرة، أو داخلها، يتعدد، وكأنما يسمع صراخًا، كأنما يرى ركضًا أو تدافعًا، هرْجًا ومرْجًا يشهد … كأنما …

٩

عندما خرج الرجل الشاب الذي كان أكثر شبابًا أمس، من قاعة المحاضرات، برفقة الطلبة، لم يفكر أن الأمور ستأخذ مجرًى آخر غير ما اعتاد عليه تقريبًا كل يوم، بعد انتهاء الحصة الدراسية في الجامعة، في الثانية بعد الزوال … سيركب الباص، ويتوجه إلى حي المنبع حيث بيت العائلة، ويتغذى، ويضطجع في نعوسة خفيفة، يستأنف عقبها مراجعة محاضراته، وهكذا، ولا يفكر غالبًا في مغادرة البيت إلا إلى صباح اليوم التالي، وهكذا …

١٠

عندما خرج طالب الأمس من مُدرَّجه ظهيرة ذلك اليوم، واتجه إلى الباب الخارجي الكبير للجامعة، لم ينتبه أنه اختلط، سيختلط أكثر بجماعة من الطلبة ليسوا من صفِّه، لم ينتبه أن الجماعة كبرت، ستكبر أكثر، أنه أصبح في وسطها منحشرًا، وأن قدميه تخطوان بغير إرادته، وأن جسده لم يعد ملكه، وأن هناك كتلة كبيرة ما انفكت تزداد كبرًا، مثل كرة ثلجية، مثل كتلة رملية، مثل قبضة مكورة، مثل جمرة ملتهبة، وهو في قلبها بدأ يحترق، قد احترق، ومن خياشيمه يخرج دخان النارجيلة الكثيف، وهو، ما عاد يُرى إلا كتلة دخان.

١١

يكون النادل الشاب قد جدَّد وقفته عند مدخل المقهى حين استعاد الرجل الشاب الذي كان بالأمس طالبًا، ولا هو يذكر بالتدقيق متى لم يعد طالبًا، فيراه قد أرسل نظراته في الاتجاه الأفقي مرة أخرى ... كلما انصرف إلى التحديق في ذلك الاتجاه وسوست في خاطره هواجس وشكوك، هل هو قلبه وقع هناك يومًا، أو انخطف ذات نظرة، وماذا لو أن سيارة دهسته وهربت، كما يحدث في هذا البلد الذي تطير فيه السيارات، ومن يومها وهو يتطلع في اتجاه الشارع، يبحث عمَّن دهسه، أو علَّه يستعيد للحظة من خطفت لُبَّه، من يدري، لا أحد يدري شيئًا، لا زبون حدَّثه يومًا عن شيء، وإن كانوا جميعًا يعرفون نزوات الزبون الأول، ولأمرٍ ما يصمتون، يتحفَّظون، يعرف هو جيدًا لماذا يخرسون، يكتفون بتبادل النظرات صامتين!

١٢

عندما رأى النادل الشابُّ الرجلَ الشاب يختفي وجهُه، جلُّه، في سحابة الدخان، أدرك، بحكم المعايشة، أن جلسة زبونه الصباحية قد بلغت منتصفها. دليله أنه رآه ينهض عن كرسيه، ويشرع في الدوران الخفي حول الطاولة. يدور وهو يتجنَّب الاحتكاك بها وعيناه شبه مغمضتين، دليله أنه حين أكمل عدة دورات، سبعًا عادة، جلس من جديدٍ، مسندًا وجهه إلى كفَّيه، بينا نظراته ذاهلة في لا-اتجاه.

١٣

لم تعد قدماه، ولا حركاته ملكه. أحس تدريجيًّا أن جسده الذي ظن دائمًا أنه ملكه، يتحكم فيه من اليقظة إلى المنام، في جوارحه، وغرائزه، كأنما بُتِر منه وانتزعه غيرُه. الحقيقة أنه لم يكن يعي وضعًا يتشكَّل، يراه يتطور أمامه، وهو في وعيه السابق، ومنفصل عنه في آنٍ. وفيما كان يظن أنه يرى كلَّ ما يجري تحت بصره، أن عينيه مفتوحتان على وسعهما وهو يلتقط ما يجري أمامه، ويستدير خلفه، ويتلفَّت حواليه، وهم مثله يفعلون، يتكاتفون ويتفاخذون، أنفاسهم متنافذة، أنفاسهم ساخنة، سائلة، مثل حناجرهم مدوية، وأصواتهم عالية، عالية، عالية؛ فيما كان يظن ...

١٤

لَمَّا انقشعت سحابة الدخان عن زبونه، هبَّ النادل الشاب يجدد له الجمر المتقد، أدرك حاجته للنفخ، ثم سينخرط في سعال متقطع، مترافق مع جسد يرتعش، كأن أطرافه موصولة بأسلاك كهربائية، وسيسمع هو والزبون الثالث، والرابع، أنينًا وعواءً هما أقرب إلى الحشرجة؛ أصوات تتكسَّر أو تختلط بالصخب الهادر لسيولٍ لا تنقطع من السيارات، وهو يقف فجأة رافعًا ذراعيه عاليًا، وفي حركة مَن يستسلم لتحذيرٍ، ومَن يريد تجنُّب محذور.

١٥

لا يذكر إن كان هو من أطلق الصرخة الشعار: «ليسقط مولانا، مولاهم، ونعيش نحن!» أم هي عدوى الهتاف دوَّت فيه كالقنبلة، لا يذكر كيف انتقلت المظاهرة من محيط الجامعة لتكتسح الميدان خارجها. لا يذكر متى زحف الطلبة المتظاهرون، وهو فيهم، حتى وهو لا يعرف لماذا يتظاهرون جرفه تيارهم، أحسَّ بنبعٍ في صدره يتفجر، وغضبٍ كبركان هامد يثور، فهتف مثلهم، أم هتفوا مثله: «يسقط مولانا، يسقط مولاهم، نعيش نحن! اليوم! غدًا، أبدًا!». ومثلهم اشتبك مع القادمين من الجهة الأخرى للميدان. هو لا يذكر هل تصدَّى حقًّا للعصا الغليظة التي … انخطف بصره إليها وهي تعلو رأسه، أم هوت فوق رأسه بلا توقُّع، أم لم تهوِ أبدًا، لأن تقرير الطبيب لم يسجِّل أيَّ أثرٍ للدم في رأسه، ربما ارتطم رأسه بشيء، مجرد ظنٍّ، لا شيء مؤكد، لا أثر محدد … ثم إنه لا يوجد أي شاهد على حادث مفترض، والصحف لم تُفد عن أي مظاهرة في اليوم التالي، ولا يوجد من يتحدث عما لا يتحدث عنه أحد … وهو بالكاد، يعي أنه هنا في مقهى «قناديل النهار» يشرب قهوته، ويدخن نارجيلته، ككل صباحٍ، وعيناه على عصا مرفوعة فوق رأسه في السقف، في الهواء، في السماء!

القاعة والحديقة
الحديقة والقاعة

إلى الناقد السرداني عبد الفتاح الحجمري،
زوَّدني بالخبر، فأردُّه إليه مسرودًا وله النظر.

١

وصلت الدعوة فوجدتَني متأهبًا، متحفزًا، بل قلقًا ومتوترًا. أولًا، تحسبًا لوضعي الشخصي، ثانيًا، لما يُسمَّى بفجاجة، ونوع من التفخيم الضاج والملتبس بـ «الظروف الموضوعية». زيادة على شرط ثالث، واقع بينهما، موجود بين الشخصي والموضوعي؛ هو ما يمكن أن أختصره لكم ببساطة في عملي، بالأحرى في علاقتي، بمدير مصلحتي الإدارية، هذا الذي ينغص عليَّ بعض حياتي، إلى حد أني مستعد لذبحه من الوريد إلى الوريد!

٢

طلب مني رئيس المصلحة حين التمستُ عطلة للتغيب، أن أدلي بحجة تبرر الغياب؛ قال: نحن نعرف انتماءك إلى ذلك الحزب، وتنسيقك لشئونه في هذه البلدة، بل أنت جزء من «بوطزطاز» في هذه المصلحة؛ إذ هذا الحزب ينفخ في «بعرتك»، حتى إنك بتَّ تتصور أن بإمكانك الدخول والخروج هنا، كأنك في هُري. لا يا مولانا، اعلم أن لا غياب عن العمل إلا بحجة، وهي عند حزبك، وعليه أن يرسل إليكَ دعوة، وعليكَ أنت أن تحضرها إلى المصلحة لنسجلها في مكتب الضبط، وشوف اتشوف بعد ذلك، مفهوم!

٣

كان محقًّا فيما يقول، في مطلبه، لكني، أيضًا، الأحق منه؛ فأنا أعتبر من ينتمي إلى حزبي مُنزَّهًا عن الخطأ، هو معصوم عن الخطأ، يعلِّم الصواب للجميع. ولرئيس المصلحة هذا الذي يحشر أنفه فيما لا يعنيه. هو مخبر، جاسوس هذا الحقير. يريد الاطلاع على الدعوة، ونقل نسخة منها إلى مخبريه الكبار، وهكذا، ليطَّلعوا ... نعم ليطلعوا، على ... على ماذا؟

طبعًا، وليترقَّى على حسابي، ويصعد على كتف حزبي، حزبي أنا، الذي ... يا لَلمخبر الحقير!

٤

كنت متأهبًا، متحفزًا، بل دمي يغلي، يزداد غليانًا، وموعد الندوة، اللقاء، اجتماع المجلس، مجلس الفروع ... يقترب. أسمع أن من الناس من يؤرخ تاريخ ميلاده، بسقوط القنبلة النووية على هيروشيما ونجاساكي، أم بعام «البون»، أو بزلزال أغادير، وقبل ذلك بنفي محمد الخامس إلى مدغشقر، الذي يسميه بيضاوة «ارفود محمد بن يوسف»، أو باختطاف المهدي بن بركة أمام مقهى ليب بشارع سان جرمان بباريس والنهار مصحصح، واختفائه إلى الآن، إلخ ... إلخ، فقلت فظهر لي أن التاريخ يمكن أن يبدأ، سيبدأ مع ... مع يوم اجتماعنا، واعلاش لا؟!

٥

قلت، تحسبًا لوضعي الشخصي، وسأشرح هذا باقتضابٍ ما أمكن. فأنا ككل البشر، عندي ما هو شخصي؛ في طفولتي، ومراهقتي، وزواجي، وطلاقي، وزهوي، وفي علاقتي، بالذات، مع هذا الحزب الذي لم أعد أذكر كيف صار جزءًا من حياتي، رائحةً في جلدي، ما عشت فيه، ورأيت، وسمعت، ونسيت، ما أحاول أن أنسى، وما لا يُنسى ... إلى يوم الدين. الحاصل، أنا، كما نقول، نحن المغاربة، «قلبي عامر»، بل أزيد فأقول: «عندي قلب مُحبٌّ!»، وعندئذٍ يا مَن لا تعرفونني، ستقع الواقعة، وهذا ما لا أرغب فيه، على الأقل في انتظار الاجتماع.

٦

قبل أن أنسى، وتنسون، أيضًا، فالخلق مبتلًى بالنسيان، أحب أن أذكر بأن توتري، وغلياني، ناجمان عما سموه بـ «الشروط الموضوعية». أقرأ العبارة في مراسلات ترد عليَّ كمسئول في

فرع الحزب. أكون مسترخيًا، ثم ما ألبث حتى أنتفض مستقيمًا كجندي سيؤدي التحية العسكرية إلى رتبة أعلى. ودقات قلبي أسمعها تقنبل، قائلة: «الله يحفظ!». أخمِّن، قد جاءت الساعة التي انتظرنا طويلًا؛ حزبي وأنا، أنا وحزبي، والساعة آتية لا ريب فيها. أحس بالدم يغلي في شراييني جمراتٍ، والجمرات التهبت، تصعد حِممًا إلى فمي ...!

٧

أقف في منتصف الصالة الصغيرة لبيتنا، تنظر إليَّ زوجتي فجأة، وهي المستغرقة في متابعة مسلسل دكتاتور سفاح، يصرُّ على إبادة شعبه بأكمله، ليبقى في الحكم مضحيًا بكل شيء إلى آخر قطرة من دم شعبه. في عينيها نظرة عتاب أني خيَّبت شهوتها البارحة، بينما أنا متحفز، شبق لما لا تعلم. بيدي ورقة الدعوة، أقرأ عبارة «الشروط الموضوعية»، أحسب حساب تعويضها حين تنتهي الواقعة: سأعوضك، آه، يا زوجتي الغالية! وكمن يخطب على الملأ، بملء صوت جهوري أردد: لبيك، لا حول لي، فهي الشروط الموضوعية!

٨

ولم أفلح معها في الليلة نفسها؛ كان بالي مشوشًا، وقلبي مضطرب الخفقان، وأقوى منه يدي اليمنى أصابها الرعاش. اصفرَّ وجهي، لعلَّه ازرقَّ، أو احمرَّ، أو اخضرَّ؛ فوجهي إذ أقابله بالمرآة لم يعطني أي لون، وما عكست لي هي إلا الشروخ. رغم إخفاقي معها اقتربت مني زوجتي، قد لاحظت رجفاني: ما بك؟ إنه الرعاش، بوتفتاف، كما تلاحظين، ومعناه أني خرفت، وسأفقدك، والأولاد، والعمل، وأردت أن أسترسل فخفت أن أنسى الأهم في اللحظة، فعجلت وأنا أحفر جرحًا في ذقني بشفرة الحلاقة: المهم عندي الآن هو الاجتماع، الاجـ...ماع!

٩

في الحافلة القادمة من طازا بلانكا، وستنقلني من بلدتي خوالنكا، هويت بجسدي المفكك على مقعدي، وأنا أحاول ضبط خفقاني ورعشي. من حُسن حظي كان المقعد بجواري فارغًا، وإلا لَلاحظ جاري كيف أني مذ صعدت لم أتوقف عن تحسُّس جيوبي، الداخلي منها خاصة. هنا حيث مكمن رحلتي، سري ودليلي الذي لم يطَّلع عليه رئيس المصلحة

الحقير. هي دعوتي، الحمد لله، مستقرة في جيبي، أتحسَّسها وأعيد، أتلمَّسها كلحم امرأتي في قراننا الأول، كيَدِ زعيمي حين فُزتُ بمصافحتها، ومن يومها صرتُ العبدَ، وحزبي وزعيمي هما المعبود!

١٠

توقفت الحافلة في بلدة عمابلانكا، فصعد كفيفان، استقر الجلوس بهما بقربي. وفي بلدة نعناع لانكا صعد آخران، فوَّاحان بالنعناع، وهذان جلسا خلفي. وفي بلدة هايهايكا، التحق ثلاثة يدفعون أمامهم طعارج وقراقب، وهم يتصايحون: هاكا! هاكوَا! هاكا! وأخيرًا، أظن على مبعدة بضع كلمترات من نهاية الرحلة، توقفت الرحلة فجأة؛ إذ قفزنا — نحن المسافرين — قد اختلفت علينا مقاعدنا، ووقف على رأس كلٍّ منا دركي: في الأمام، في الوسط، وإلى الخلف، وثلاثتهم نطقوا مرة واحدة: هكذا؛ كلكم هنا؛ هكذا جميعكم ذاهبون إلى القاعة، سنرافقكم، نحن أيضًا، إلى مدينة قاعا لانكا.

١١

احتكَّ بي الذي صار إلى جواري في المكان الشاغر سابقًا: معك المعلوم؟ المجهول؟ أقول: الدعوة، أي دعوة؟ لا تنكر، أنت منا! التفت خلفه، وردَّد كلامه حرفًا: معك المعلوم؟ أنت منا ... التفت إلى أمام المسافرين، إلى خلفهم، إلى وسطهم، على قدامهم. كلهم، جلهم يتهامسون، وشيئًا فشيئًا يتباوسون ويتعانقون، والسائق نفسه تخلى عن المقود ليرتمي في الأحضان ... إلا حضني. انشغلت عنه، عنهم، عن جديتهم بتحسس جيوبي، جيبي الداخلي خاصة. قلبي ينبض، وأطرافي ترتجف، إلى أن جسستُها ورقتي، دعوتي، لا أعرف كيف أخرجتها، وأشهرتها على الملأ: ها هي ذي ... دعوتي!

١٢

– قلها من الأول، حسبناك منهم!

– منهم، مَن هم؟

– هم! وإذن، أنت معنا!

أنا مع الدعوة. وأشهرتها أمامهم، فما كان إلا أن فعلوا وأشهروها مثلي: ها هي ذي ... دعوتنا!

– وإذن، سنقول لهم.

– ماذا؟

– ما اتفقنا عليه.

– على ماذا؟

– حسب الشروط.

– الشروط؟

– الموضوعية، طبعًا، أنسيت؟!

– نسيت، أنا، أبدًا، ربما الرعاش، أو الألزايمر، زوجتي، إخفاقي معها البارحة، مرة أخرى، بلى، سأقول لهم.

– ونحن، أيضًا، ما دمت معنا سنقول لهم كل شيء ... في القاعة.

١٣

دنا مني جاري يسألني عن موضوع اجتماع العاصمة، فاستغربت كيف هو لا يعرف. ردَّ: بلى، ولكنني أخفيت الدعوة خشية أن تضيع. فلما أجبته بأن الموضوع يتعلق بـ «الشئون الموضوعية» فزَّ كالمستغرب، لا يبدو عليه أنه فهم. وهنا طمأنته، أؤكد له أن المهم من ذهابنا شيئان: الحضور، والكلام. فعاد يسأل: لكن، الكلام عن ماذا بالضبط؟ عقلته: عن الشروط الموضوعية يا رجل. إنما، ما هي؟ تساءل للمرة الثالثة. ولأوقِف لَجاجه، قلت بحسمٍ وحزمٍ: حين سنكون في القاعة ستفهم، وسيأتيك الكلام وحده، من قلبك، هكذا، من عند الله، سترى!

١٤

فكأن سائق الحافلة لم يكن ينتظر إلا عبارتي الأخيرة، لا أعرف كيف وصلت إليه وهو في الأمام، هناك، ففرمل فجأة والمحرك يهدر، وصاح وهو يهدر: لا بد أن نقول لهم كل شيء. هدر الصف الثاني: لا سلام، ولا منام، نريد الصح! نريد المعقول! هدر الصف الخامس في الحافلة: نريد التغيير، نريد التجديد، نريد الجديد. ظننت أني سمعت مَن أضاف: والثريد والقديد، حتى هو! وهبَّت الحافلة كلها تهتف: التجديد، الجديد، الثريد بالقديد، الجديد!

غمرني الانتعاش والتفاؤل، فها نحن أبناء البلدات الخلفية ذاهبون إلى العاصمة، وسنقول لهم الكلمة الحازمة!

١٥

يبدو أننا بكَّرنا في الوصول؛ إذ انتظرنا أزيد من ساعة عند المدخل الخارجي لمقر حزبنا. لم يسمح لنا الحارس بالولوج قبل وصول الكبار، قال: «الكبار!» وصدره ينتفخ أمامه، وجسده، رغم ضآلته، وقِصر قامته، يسد الباب سدًّا محكمًا، ونحن ننظر ولا نفهم، والكلام يتلجلج في صدورنا ولا يخرج، على الأقل كان في صدري هكذا، وأظن أحسست به يصطدم ببعضه في جوف رفاق رحلتي، إنما العجب أننا حين طفقنا نتبادل النظرات في وضع من يستنكر رأَينا شفاهنا مطبقة، والأغرب أن أجسادنا تنقص، تتقلص، ولم ينقذني من الزوال إلا تلمُّسي جيبي الداخلي أتحسس الكنز الذي فيه، دعوتي، لكن هذه المرة بحماسٍ أقل، بدون الصعقة الأولى.

١٦

أخيرًا سمح المنتفخ بدخولنا، أفهمنا أن الكبار وصلوا، ولم نرهم يدخلون، ولم نفهم إلا حين أصبحنا وراء المدخل ورأينا بابًا جانبيًّا يفضي إلى القاعة، فأدركنا أنه باب دخول الكبار. عبرنا أولًا ممرًّا ضيقًا مغطًّى بعريشة موشاة بزهيرات، تفضي إلى باحة توزعت فيها النباتات كأنها مشتل، وهي منفتحة على المكان الذي أخذنا في الدخول إليه تباعًا، قاعة الاجتماع. العجيب أن سقفها الذي يغطي مكان جلوس الحاضرين وطيء جدًّا، فيما مقدمتها سقفُها عالٍ، ومزين بنقوش، وتحته منصة طويلة من خشب السنديان الفخم، حيث جلس الكبار.

١٧

ألقى أكبر الكبار الكلمة الأولى، رحَّب بنا، ونبَّه للظرف الدقيق الذي تمر به البلاد، وحيَّا فينا جميعًا الروح التي تجمعنا هنا في هذه القاعة، وفي هذه اللحظة التاريخية بالذات، ولم نكن نحن نعلم عن أي لحظة يتحدث بالذات، ولا هي وردت في الدعوة، فقدَّرنا من النظرات التي صرنا نتبادلها بخفرٍ واختلاسٍ أن الأمر يتعلق، لا شك، بخطبٍ جللٍ، وزاد إن علينا دائمًا

أن نتحلى بروح المسئولية، التي تحتاج من المناضلين والمناضلات، والفاعلين والفاعلات، إلى تغليب الشروط الموضوعية، على الخصوصيات والذاتيات، لأنها، غير موضوعية.

١٨

تناول الكلمة بعده نائبُه، فنائبُ نائبِه، فالنائبةُ عنهما، وجميعُهم يتحدثون عن أهمية اللحظة التاريخية، وكيف الحاجة لتدبير الأزمة، لـ «تحقيق انتقال هادئ وسلس» يضمن للحركة أن تبقى في الريادة «مع تحليل صائب وفهم عميق للشروط التاريخية (كذا) وإلا «سيفوتنا قطار التاريخ.»» وفعلًا، كان الوقت يمضي سريعًا، ولم يكن أي منا قد تدخل ليقول كلمة عن مشاغل بلدته، ورأيه في تدبير الأزمة، وكل ما عزمنا الحديث عنه وتمرنَّا عليه ونحن في حافلتنا قاصدين الاجتماع. كان الوقت يمضي، ونحن نخاف أن يمضي علينا وقت العودة في القطار!

١٩

لاحظت الذي بجواري يحرك سبابته، وشفتيه، ويتململ في مقعده كأنه سيقف ليطلب الكلمة، ولم يقف. لاحظت شخصين أمامي يتزحزحان كثيرًا، ويصدران صوتًا كصهيلٍ مختنق، لكنهما لم يقفا ولا تكلما. رابع، وسادس، تاسع، اهتزوا كنوابض في مقاعدهم، منهم من رفع إصبعه، يده، وكنت أتوقع صوته، حتى إني سمعت مثل الصدى، ولم يك إلا توهمًا ما رنَّ في أذني، ولذلك قررتُ أن أضع بنفسي حدًّا لهذا التردد، والقلق، والخوف، بل والجبن، وأن أتصدَّى بمفردي لهؤلاء الكبار الذين يسوسون باسمنا، ولما وقفت، ها، تجمَّدت أطرافي، يبس فمي، بلعت لساني، نظر الحضور جميعًا إليَّ، وما لبثت أن هويت لا أنبس ببنت شفة.

٢٠

أعلن رئيس الجلسة توقفًا قصيرًا للراحة وشرب الشاي، فخرجنا وتجمَّعنا في الحديقة، الكبار في جهة، ونحن جماعة الحافلة انتبذنا لنا ركنًا. طفقنا ننظر إلى بعضنا باستهانة وشماتة: هه، هكذا إذن! لماذا صمتُّم؟ لأنهم قمعونا، لن أسمح بعد ... أبدًا، لم يقمعنا أحد، نحن الذين لم... سترون بعد قليل، سأكون أول متدخل، سأقول الحقيقة ... سترون،

سأطلب الكلمة، سأفضح الأمور، في كل مرة يسحروننا بالشروط الموضوعية، أنا سأتحدث عن الشروط الذاتية والإنسانية، وما يجري حقيقة على أرض طازلانكا، وزبلانكا، وعمالانكا، الكلمة أنا!

٢١

تقدمنا إلى القاعة نتبع من أصرَّ أنه سيطلب الكلمة الأول. قال: «سأفرقع الدَّلَّاحة». علَّقنا: يا حفيظ! اهتاج الذي وراءه: حتى أنا! الذي بعده: وحتى أنا! وتبعتهم: اعتمِدوا عليَّ، أنا أيضًا. لمَّا صرنا في القاعة توقعت سماع الفرقعة الأولى، لم يحدث شيء. عاد رئيس حزبنا يواصل خطابه بصوته المفخَّم، وحين رأى يدًا ترتفع ربما يطلب صاحبها الكلمة، واصل قائلًا في جملة اعتراضية: سنشكِّل لجنة خاصة للاستماع إلى الشكاوى. أما الآن فعلينا أن نتعبأ لإعداد تصور شمولي لمخطط الحكامة الجيد، ودائمًا وفق مقتضى الشروط الموضوعية التي … ربع ساعة ثانية مضت ولم تحدث الفرقعة، ربع ساعة ثالثة، ونحن نسمع مكتوفي الأيدي، والذي أصر على أخذ الكلمة لم يتكلم، وأنا كدت أتكلم، لولا أن الرئيس عاد يرفع الجلسة للاستراحة.

٢٢

– شوف أسيدي، إحنا ما جيناش من الثلث الخالي حتى نبقاو ساكتين!

– شوف أسيدي لا بد من وضع حدٍّ لاحتكار الكبار، واضطهاد الصغار.

– شوف أسيدي، نحن لا يمكن أن نبقى، إما مكتوفي الأيدي، أو من المصفقين.

كنا قد انتبذنا لنا مكانًا في الحديقة، نحن الصغار، وقد حمل إلينا الحارس كئوس شاي وكعيبات غزال، وهو لا يفوِّت الفرصة لنفخ صدره، وإظهار تأفُّف سافرٍ منا، وهو ما استفزَّ جاري في الحافلة، الذي رمى الكأس والكعب، وتصدَّى له، لنا، في آنٍ، مكورًا قبضته، رافعًا يمناه ليعلن في قسمٍ مدوٍّ: «وحق الله العظيم، سترون ما سأفعل بهم، ما سأقول في القاعة!»

٢٣

عدنا نتدافع عند مدخل القاعة، صحَّ عزمُنا للمرة الأخيرة على ما لا بد أن يقع، وقد أصبح لنا قائدٌ ليتحدث باسمنا، أو سيحدث — هكذا قال — ما لا يُحمَد عقباه! لولا أن حدث ما لم يرد في الحسبان، حسباننا نحن على الأقل. فإننا، ونحن نضع أقدامنا على أرضية المدخل، انبرى

لنا الحارس بصدره المنفوخ. صمدنا وهو يدفع، ونحن صامدون، ودفعه أصْمد. تدفق من خلفه الرئيس، ونوابه، والنائبة. قالت بلهجة آمرة: ابقوا في مكانكم. وأردفت مخفِّفة: الجو حار، سنواصل الاجتماع هنا. رفع القائد التحدي، سندخل إلى القاعة؛ سنقول كلمتنا. تصدَّت النائبة بعنجهية: كلا، الكلام في الحديقة. زاد هو معاندًا: كلمتنا نقولها في القاعة. احمرَّ وجهها، انتفخت أوداج الرئيس، ونائبه، صار الحارس بالونًا، اختلط الكلام: نقول لكم، القاعة والحديقة ابحال، ابحال. استنفرنا منكرين: لا، القاعة، أولًا وأخيرًا! ردَّ الكبار: القاعة أولًا وأولًا!

٢٤

فرمل سائق الحافلة فجأة، فتقافزنا في أماكننا؛ إذ انتقل الأول إلى الأخير، والأخير في الوسط، ارتطمنا ببعضنا، تجاذبنا، تعانقنا. سمعت حنجرتي تصرخ في صراخهم: «القاعة!» «القاعة!» «القاعة!»

صعد إلى الحافلة دركيان، فوشوش لهما السائق بشيء، فتبسَّما، وضحكا، وتضاحكا، وقهقها، ثم استعادا سمت الوقار، سائلينا: إلى أين؟

فتكفَّل السائق بالجواب معلنًا: على ربالانكا، أسيدي.

فسألا مباشرة: ولكن، اعلاش هاذ قربالة؟!

لم يتلقيا عندئذٍ أي جواب لأننا كنا ما نزال نصرخ، ونهتف: «القاعة!»، «القاعة!»

فرفع أحدهما عقيرته فوق صراخنا، وقبضته تضرب سقف الحافلة: «ما دام هذا مطلبكم، فسنأخذكم إلى القاعة، هيا»، وخاطبا السائق: «من هنا إليها، مرحبًا بكم، لن يكون إلا خاطركم؛ في القاعة إن شاء الله.»

الشعب يريد إسقاط ... بوطاقية!

١

وصلت إلى شارع محمد الخامس استطرادًا؛ إذ لم يكن وجهتي الأولى. قصدت أولًا حي «الجزا» أبغي إصلاح عطب في هاتفي المحمول. ثم وجدتني أنتقل بين أزقته، وبين حشد المشترين، والباعة، الرجال والنساء والفتيان، وكثير من المشردين والعاطلين، واللصوص، خاصة. كنت كالسائر في نومه، ومتكاسلًا، متعطلًا، مع المتسوقين، وخارجهم، حتى إني صرت أحس وأرى فيَّ اثنين، ما أقلقني للوهلة الأولى، ليتطور الوضع كما لم أتوقع بتاتًا.

٢

وجدتني بلا انتباه أنتقل من سوق الهرج في «الجزا»، إلى شارع محمد الخامس، بطواعية لم أعهدها فيَّ من قبل؛ فقد فتَرت علاقتي بهذا الشارع منذ أعوام، بعد أن فقدَ قيمته التجارية، وتحوَّل إلى طريق للعابرين والمتسكعات، ومَن يبحث عن أي شيء، وعن لاشيء. فكرت أن المبتغى الأخير يناسبني، أي أني، وبعد إصلاح هاتفي، تركت قدمَي تنقلانني وحدهما، بحركتهما المنفصلة عني، لا بإرادتي.

٣

هذا في الظاهر، لأن الآخر، أو الثاني فيَّ أنا كان يدور في رأسه شأنٌ مختلف. جاء إلى الشارع بحثًا عن شيء محدد، جاء، بلغة الصحافة لـ «يقيس نبض الشارع». لا بد أن أسجل أن يوم تجوالي هذا صادف الجمعة رابع فبراير، وقد مضى أسبوع على انتفاضة المصريين

بشعار: «الشعب يريد إسقاط النظام»، هكذا، فأنا بوضوحٍ تامٍّ جئت لأتحسس أحوال الناس، الشعب، في هذا الشارع الرئيس من مدينة الرباط، عاصمة الملك والحكومة، والبلاد، طبعًا.

٤

كنت أمشي بتؤدة، بخطوة المتسكع، الذي لا يلوي في الظاهر على شيء. أرتدي بنطالًا وبلوفر أسود، ومعطفًا باللون ذاته، واضعًا على عينَي نظارتين سوداوين، أيضًا. أُشبه سائحًا، أو بالأحرى مفتش شرطة في مسلسل تحريات أمريكي. أوزع نظرات مسددة ومبعثرة في وقتٍ واحدٍ. بدأ سيري من أول الشارع عند مبنى وقيسارية المامونية، مرورًا بمتجر نهيرا، ومكتبة كليلة ودمنة — كلها من جهة اليمين — وصولًا إلى بناية المقر المركزي للبريد.

٥

انتقلت إلى الرصيف الأيسر من الشارع، من غير أن ألحظ ما يختلف كثيرًا عن الرصيف الأيمن. دائمًا، نساء ورجال يتسكعون، فتيان يتنطعون ويغازلون، بنات يعرضن مؤخراتهن المكورة بإثارة واضحة، وسابلة يسرقون وقوفًا عناوين صحف ومجلات مفروشة أرضًا أمام الأكشاك، ولا يقتنون. سيارة شرطة تمرُّ متمهلة، تظهر، وتختفي، لتعاود الظهور. شعرت أخيرًا بالضجر حقًّا، بلغطٍ يضرب أذني، لكني لم أسمع نبض الشارع، الذي جئت لـ...

٦

أردت أن أسأل حارسًا عند مدخل عمارة أين ذهب الخريجون المعطلون الذين يُرَون كل مساء، وهم يركضون هاربين من هراوات مكافحة الشعب — نعم الشعب، لا الشغب — تطاردهم انطلاقًا من الساحة المقابلة للبرلمان في وسط الشارع، وهم ينددون بالحكومة، مطالبين بالشغل والكرام، و... اقتربت فعلًا من الحارس، بادرت بالسلام، وأظن همهمتُ بكلمة أو كلمتين، جعلتاه يصفق ورائي باب العمارة. عزوت ذلك إلى هندامي الأسود على الأرجح، المشبوه، دون أن أجزم بشيء، رغم أن كل هؤلاء الحراس مخبرون لدى الأمن.

٧

لم يظهر لي في أعلى الشارع، وعلى امتداد ساحة البرلمان، سوى عائلات شبه ضالة، متبعثرة بأطفالها، يلاحقون أزواج الحمام، وهم يمشون مترنحين، ليس لهم غير هذا المكان للفسحة، وبما أنهم هنا، خمَّنت أنهم فرحون، على الأقل مرتاحون نوعًا ما، جاءوا ليبدِّلوا ساعة بأخرى، كما يقول المغاربة، وإذا كانوا قد سمعوا بغضبة شعب تونس الذي أرغم رئيسه على الهرب، وبانتفاضة شعب مصر الذي يصر على إسقاط النظام، ورحيل الرئيس، أيضًا، فلا يبدو أن شعب الرباط قلق أكثر مما ينبغي، وإذن، أستنتج، أن نبض الشارع على ما يرام.

٨

ازددت تأكدًا من استنتاجي، وأنا أنتقل من ساحة البريد إلى الجهة العليا من شارع محمد الخامس، منخرطًا في ممر الأقواس الصاعد نحو مقهى باليما الشهير. على طول الممر الذي خضته إلى أقصاه شمالًا، مشرفًا على ساحة العلويين، وعدت أنزل من جديدٍ إلى ساحة البريد، اقتنعت بأن شعب الرباط مبتهج، يأكل البزر، ويتحلق مزدحمًا أمام محلات العصير، يقبل بنهمٍ منقطع النظير على الحلويات والمونادا بأصناف، ويهدر، يهدر، في المحمول بلا حدودٍ، فأيُ سعادة هذه، وأي مزاج رائق لدى شعب الرباط!

٩

الظاهر أن الشخص الآخر الذي كان يرافقني، أعني يزدوج بي، لم يعجبه هذا الحال، أو لم يفهمه، أو أشكل عليه، ففكر في الانقلاب على هذا الوضع الرائق في النهاية، وليس لأن طبعه لا ينسجم مع الاتفاق العام، يتوسوس دائمًا إن رأى السكينة سائرة بين العباد، ولكن لشكٍّ انزرع فيه فجأة جعله يتصور أن ما هو فيه، وحوله من مشاهد وحال، إنما هو ترتيب مسبق، ومسرحية منسقة، لها مؤلف ومخرج وممثلون وكومبارس، وهو الناظر، الصاعد، النازل في الشارع الباهر، متفرج، مخدوع ككل المتفرجين، وأي مسرحية تُبنى على الخدعة، وأنه هو سيتحوَّل إلى متفرج أهبل إن سقط في فخ الخدعة، وانطلت عليه، كما هي على الأقل.

١٠

«كلا، لن تنطلي عليَّ!» صرخ الذي يقول أنا، حتى إن بعض المارة استوقفتهم صرخته، رغم اللغط المتعالي من كل جهة. أعاد عبارة استنكاره وهو يعبر من جهة ممرٍّ بنك المغرب إلى الساحة المقابلة، بخطوة وئيدة، وعيناه تريان ولا تريان في آنٍ؛ إذ أخذت الصور تزدحم في منظوره، وخياله معًا، لا يفرز أيها أقرب إلى الحقيقة، وأغربٍ من الخيال، ويدير في رأسه حبكات لما يمكن أن يقدِم عليه الانقلاب على وضعٍ بدا — موقنًا، مقتنعًا — أنه ملفق، قائم على الخدعة، مثل كثير من الأمور في الحياة، وأن عليه إعادة الحقيقة إلى نصابها.

١١

وهو قادم من ممر البنك قبالته ساحة جديدة تم تهيئتها حديثًا بعد هدم بناية قديمة كانت مقرًّا لوزارة الإعلام. لم يفهم، لم يفهم أحد لماذا تمَّ هدم تلك البناية الاستعمارية الجميلة. المهم أنها تحوَّلت إلى ساحة معشوشبة، لكن بدون كراسٍ، وصار العاطلون والعشاق يطوفون بها لتزجية الوقت، مساء خاصة، يقطعون عندها نصف مساحة شارع محمد الخامس، من جهة اليسار. ثم، وفي تحوُّل سريع جعلت السلطات تندم على صنيعها تحوَّلت الساحة إلى مكان ملعون، عندما اتخذها الخريجون المعطلون موقفًا للتشاور والتنسيق لهجوماتهم المتراوحة بين الكرِّ والفرِّ أمام البرلمان للمطالبة بالشغل والكرامة، ويندس معهم أحيانًا آخرون يهتفون من أجل الديمقراطية الحق، والانتخابات النزيهة، والإسلام أولًا، وشعارات أخرى، وأخرى.

١٢

حاذيت الساحة، أولًا، ثم رحت أطوف بجوانبها، وانتهيت بأن قصدت موقعًا وسطًا أقل ازدحامًا. الساعة السادسة والنصف مساء، وهنا هي ساعة الذروة؛ لذلك وجدت الوقت مواتيًا لأنفِّذ فكرتي وخيالي. انتصبت في موقعي كمثالٍ، وأغمضت عيني علَّني ألفت نظر القوم ... لا فائدة. صرخت بهياجٍ فضاع صراخي في زحام المارة واللاغطين. في النهاية، قلت سأفعلها، سأفعلها، وليكن ما يكون. هكذا، شرعت في نزع ثيابي أتعرَّى ببطء، لكن بشكلٍ أكيد، وهنا بدأت الحلقة تتكوَّن حولي، واحدًا، واحدًا.

١٣

واحدًا، واحدًا يفدون، بتردٍ، بحذرٍ، وبشكٍّ وفضول واستنكار، للاستخفاف وللفرجة، أيضًا. كنت قد فكرت مثلهم. الجمهور يحتاج دائمًا إلى فرجة. وهم أنفسهم يمشون متسكعين، متنطعين، في شارع محمد الخامس يمثِّلون فرجة. والفضائيات هذه الأيام تقدم انتفاضة الشعب في تونس، وفي مصر، كفُرجة. هم هناك يهتفون، ويندِّدون لرحيل طاغية، ويريدون ترحيل الثاني، بينما شعب الرباط، «شعبي»، يشاهدهم في شاشة الفرجة.

١٤

أطلقتُ صرخة مدوية ثانية، لا شك تهز الجماد، فكيف بالبشر، نطقت فيها بالكلمة الأولى: «الشعب»، وطفقت أعيدها، وفي غمرة وجداني، أو غضبي، أو قرفي، أو حتى يأسي. انقذفت الكلمة خارج لساني، أبعد من فمي: «الشعب، الشعب، الشعب.». صرنا اثنين، بل ثلاثة: أنا بجسدي الواقف، وفمي بحنجرتي ولساني الصارخَين، والكلمة بمفردها جسدٌ وحنجرةٌ ولسان، لغةٌ ومعنًى وموسيقى، حقٌّ وظلم، حق وظلم، ضرب ورفس، رصاص ودم وأرض فسيحة، كله جسد متراص، اسمه الشعب.

١٥

مضى بعض وقت وأنا أنتظر. أتوقع أن يلتقط واحدٌ من الواقفين الكلمة ليسألها ما بها، ليمسح عنها ما عفَّر وجهها، الجرح الذي أثخنها، ما سامها خسفًا واحتقارًا. اللصوص ممن بلعوها لقمة سائغة. انتظرت طويلًا قبل أن أسمع من حلقة تحيط بي، حلقة تشابكت رءوسها فتحوَّلت إلى ما يشبه أجمة، وهي تمد نحوي أعناقًا تطول تارة، لتتقلَّص أخرى، مع أجساد تترنح كالسَّكرى، من أثر لا أعرفه، أو على الأرجح تهييئًا لاكتمال الفرجة التي أنا بصددها؛ لقد ظنَّت، ولا شك، أني مرقِّص ثعابين ... سمعت أخيرًا من يسأل بنبرة لا تخلو من سخرية: «هه، ماذا عنده هذا الشعب، شعبك؟!»

١٦

أظن، وبعض الظن إثم، وشكٌّ، ووهمٌ، أن غيري من تصدَّى للجواب، لأني لا أعقل الآن، وأنا أدوِّن ما جرى، وربما لم يجرِ قطُّ، أي خُيِّل إليَّ فقط. أظنني رأيت فيما يرى الصاحي

الكلمة، سمعتها ترد على السائل المستخف بثباتٍ وثقة: «الشعب يريد ...»، وتعيد: «الشعب يريد ...». تراءت لي الكلمة شخصًا، شخوصًا، بل رأيتها كذلك، بل رآها أمامي، بعيني وعيونهم، جمهور الحلقة، شدَّت أبصارهم وأسماعهم، لأنهم أشاحوا عني قد ولَّوا وجوههم إلى ناحية غيري، إلى صوتٍ هائجٍ يحتجُّ: «الشعب يريد ... الشعب يريد ...»

١٧

وقد «اختلط الحابل بالنابل؛ قد انتقلت حلقة الجمهور إلى قلب الفرجة، وصرخ الجمهور، ضجُّوا مستغربين، منكرين، مبسملين ومحوقلين: «لا، لا، هذا سحر، هذه شعوذة، هذا باطل، هذا جنٌّ، بسم الله الرحمن الرحيم.» ومن قلب الأجَمَة انبرى شخص بملامح تشبهني يحتجُّ مستنكرًا: آش من شعب، الشعب مالوا؟ الشعب ما باغي والو!» لم أنتبه، ولا قدرت على التحكم في الكلمة التي انزلقت إلى جانب عبارة: «الشعب يريد ...» جاءت كلمة «إسقاط» واصطفَّت إلى ما يسبقها جاحظة العينين وهي تحملق في الواقفين، أضحوا ثانية منبهرين.

١٨

استوت الجملة على الشكل التالي: «الشعب يريد إسقاط.» أخذت أعلكها بصمتٍ كلُبان، فلم تعجبني. كررت مرات، فلم أفهم ولا استسغيتها. تدخَّل فتًى في الحلقة يقول: ولكن هذه جملة ناقصة. حاولت تجاهله، فألحَّ: نعم ناقصة، بمعنى أن «الشعب يريد إسقاط من؟ ماذا؟» وهو يطلب مني الجواب. هنا كانت الحلقة قد تكاثفت، والأعناق طافت بعنقي، والآذان عند باب لساني، وقامات ظاهرة وخفية، بوجوه مكفهرة أحاطت بالأجمة، فقفزت في مكاني كبهلوان، وأنا أصفق بيدي زاعقًا: «الشعب يريد إسقاط ... بوطاقية! الشعب يريد إسقاط بوطاقية!»

١٩

«ألم أقل لكم إنه مشعوذ، دجال، ألم؟!» كان المُكذب من أصحاب القامات الظاهرة الخفية، وانبرى ثانٍ من بين الوجوه المكفهرة: «ما هذا التهريج آلسي؟ ما هذا التخربيق؟ ومن يكون بوطاقية هذا؟» قلت هذه فرصتي لأفلت بجلدي وخيالي، فأجبت بتحدٍّ وارتياحٍ: «كيفاش، بوطاقية، يا من لا يعرفه في حي أكدال، وهو الذي يطعمنا كل مساء بلحومه اللذيذة، منذ

أسبوع أعلن العصيان، وقرر أن يتفرغ لتجارة زيت أرغان، وهذا يغضبنا جدًّا، ولذلك فـ «الشعب يريد إسقاط بوطاقية»» قُلتها، نغَّمتها، لا أعرف كيف ظهر إلى جانبي من له طبل، دف، مزمار، منشار، وانطلقنا جماعة نصعد من ساحة البريد، عابرين ساحة البرلمان، صاعدين شارع مولاي يوسف، زاحفين على حي أكدال، ونحن نهتف: «الشعب يريد إسقاط بوطاقية!»

٢٠

في الجهة المقابلة للساحة السابقة لمبنى وزارة الإعلام، وقفت أتفرج على حلقة تحيط بشخصٍ في وسطها. قادَني فضولي نحوه مثل كثير، خاصة حين اتسعت الحلقة. فغرتُ فمي لَمَّا رأيت الشخص، فقد كان يشبهني تمامًا، ويرتدي الملابس ذاتها التي أرتدي، ما عدا نظارتيه السوداوين نزعهما. لاحظت أن بعض الواقفين ينقلون نظرهم بيننا نحن الاثنين. حين بدأ يردد الشعار الذي يهتف به المصريون في انتفاضتهم، قلت هذا سيُشعِل فتنة، أنا أعرفه أحمد المديني هذا، منذ عهد كتابه: «العنف في الدماغ» وهو لن يهدأ، لذا أطلت عنقي، وهمست في أذنه لأثنيه عن نواياه، لكنه صعقني حين هدَّد بفضحي أمام الجمهور، لا أعرف بماذا، ليضيف: «أنا الآن من شعب الرباط، من أصدقاء بوطاقية، وقد تبعتك من وقتٍ وأنت تتنقَّل بين السويقة والشارع، تريد ... اعترف، ماذا؟ هه؟!»

الرباط في ٠٦ /٠٢/ ٢٠١١م

النشرة الأخيرة

١

هاجمني التثاؤب فجأة، بينما ظني أني يقظٌ، مسترخٍ فوق الأريكة بعد نهاية يومٍ، لا شاق، ولا متيسر تمامًا، بينهما. كنت قد تعشيت بحكم العادة لا غير، وبقيت في قرارة كأسي أمامي شيًّا. لم يبقَ ما أفعله، إذن، ولا النوم داعب جفوني، كما يقال، ثم إني عازب، هي نعمة أو نقمة اخترتها بنفسي، وأتحمَّل تبعاتها حتى ما بعد النهاية، فلا ضرورة تجرُّني إلى الفراش، فماذا يبقى، إذن؟ أوه، يبقى، بقي، ربما كل شيء، ربما لا ...

٢

رنَّ الهاتف المحمول في جيب منامتي فأهملته، ليس للقوم ما يفعلون سوى يثرثرون، والليل يتقدَّم ونحن نسبح في الكلام، من الصباح إلى المساء لا شغل للأنام إلا الكلام. زاد الرنين إلحاحًا، فقدَّرت أن ثمة سببًا عاجلًا، ولا مناص من الرد. أتشاءم عادة من رنين مستميت، فقد بِتنا نعيش في عالم مليء بالأهوال، ومن النادر أن يزفَّ إليك أحدٌ بشرى، أو خبرًا سارًّا. هو النذير تِلو النذير، ناهيك عن ولائم النميمة والتشنيع، وهذا الهم كله أصبح يجلبه الهاتف المحمول؛ لذا قررت اصطناع الصمم.

٣

انتقلت العدوى مباشرة إلى الهاتف الثابت، رنينه أعلى، ولا حاجة بي للتخمين، سيكون الشخص نفسه، وما أحسبه إلا سينغِّص عليَّ بقية الليل، أو سيقض مضجعي بخبرٍ زفت،

سينعى فلانًا أو علَّانًا، وجنازته غدًا في مقبرة الشهداء، إما قربي بالرباط، والأدهى بالدار البيضاء أو مراكش؛ من أين جاء كل هؤلاء الشهداء؟! وقد يحتاج إلى سُلفة عاجلة، فنحن في متم فبراير و«سأعيد لك المبلغ مع مطلع الشهر، والله العظيم» ولن يعيد فلسًا، سينضم إلى صف الخصوم والأعداء. ثمة احتمالات كثيرة من وراء إلحاف الرنين هذا، اللهم، اللهم أن يتعلق الأمر بـ ... دائمًا هناك من يقول إن الأمر يتعلق ...

٤

انتزعني من تساؤلي صوت طلقات، دويٌّ، انفجار. فانتفضت واقفًا، رأسي من خلف نافذة الصالون إلى الشارع، فلم أتبيَّن، لو تبينت، إلا سجفَ الظلام يغطي رأسَها قبعةٌ من ضباب. وكما يقال عادة، لا نأمة ولا حركة في الخارج، وبما أني متأكد أن الطلقات لم تدوِّ برأسي؛ إذ رفعت يدي أحيط به، متلمِّسًا، متحسِّسًا، ناظرًا إلى أصابعي هل بها دمٌ، والرأس لم يُحفر به ثقب، فحمدت الله، وهرولت متنقلًا بين غرف الشقة أبحث عن مصدر الصوت، لأعود فأنهار لاهثًا فوق أريكتي، مطمئنًا بعض الشيء، لولا، لولا دويُّ الانفجار، من جديدٍ، وبتتابعٍ، و...

٥

وبسذاجة اكتشفت بلاهتي. انتبهت كيف عدت أرصد عينَي تلتصقان التصاقًا بشاشة التلفاز، وهل كانتا غادرتاها دقيقة واحدة، لأني تعشيت هنا، مثل سائر المواطنات والمواطنين قبالة التلفاز ... بلعت خلالها نشرة الأخبار الرسمية الركيكة، وحلقة من مسلسل بوليسي سمج، عنوانه «لابريكاد»، وقضمت تفاحة وأنا أستمع إلى قرار «سوريالي» لوزير داخلية دولة عربية يحذِّر بأن التظاهر يتعارض مع الشريعة الإسلامية ... وللتوِّ انتبهت أن كأسي الذي كان مترعًا حتى الجمام، قد فرغ، فصببتُ فيه ما يخفِّف من هذه البلوى، وكل هذا وعيناي لم تبرحا شاشة التلفاز، يا أولي الألباب.

٦

لا شك أن الطعام أثقل على معدتي، فصعد بخاره إلى رأسي، مع خيوط وتلونات أخرى جديرة بالليل، وإلا لكنت اهتديت إلى صوت الطلقات والانفجارات التي عادت تهزُّ جنبات

الصالون، وتقصف رأسي معها، مصدرها هذا الجهاز اللعين الذي عيناي عليه وإليه مصوَّبتان، منذ وقتٍ، بل منذ أمد. وأنني أشاهد، كما أمس، وأول أمس، وقبل أسبوع، أسبوعين، وقت أطول وأزمن، كيف يطلق ضباط وجنود حاكم عربي، قائد، زعيم، مرشد، رئيس أكبر جمهورية في المعمور، وفوق هذا وذاك، ملك ملوك أفريقيا، ومؤلِّف كتاب يعتبره، وبتواضعه الجمِّ، أنه مصنَّف لا يأتيه الباطل — بعد القرآن ونبيه — من بين يديه، ولا من خلفه، وأنه هو، وبعد، أو إلى جوار المصطفى عليه السلام، وهذا دائمًا من تواضعه الجم، سيد المرسلين وخير الأنام؛ لذلك، وأخذًا بالاعتبار لكل هذه المزايا والخصال، فضباطه وجنوده يطلقون وابل الرصاص والقذائف من الرشاشات والكلاشينكوفوات والأربيجيات ومدافع الهاون، برًّا وبحرًا وجوًّا، على جماهيره التي من فرط حبها له، أصابها في غفلة من الدهر، وبعد أن تسرب إلى جوفها كثبان من رمال الهلوسة، انقلبت عليه تريد أن تأكله، كما كان عرب الجاهلية يأكلون آلهتهم اللات والعُزَّى ومناة الثالثة، متناسين أنه ليس صنمًا، لكن إلهًا واحدًا، أحدًا!

٧

من جديدٍ انتزعني الرنين الذي استأنف نشاطه من هلوسة إطلاق النار. هذه المرة، لا من سعار الطلقات، ولا من هياج العرب الذين يعود أصلهم، على ما تُجمِع كتب التاريخ، إلى الجاهلية، وما قبلها، والأشجار، والطيور، والسحب، والصحون اللاقطة للأقمار الصناعية؛ أخذتني أخذًا عن جسدٍ من جسدي، يسبح في نهرٍ من دمي، أم بحر دماء، مضطربًا، متقلبًا بين أعضاء وصدور، وبين نساء حُزت منهن الأثداء، أكباد مقروحة، أعناق مذبوحة من الوريد إلى وريدي، لكَمْ بحَّ صوتي في حناجرهم بالنداء، وطوينا سنين وأعمارًا هباءً في الهباء، والمتفضِّلات، المتفضِّلون علينا، نحن الدهماء، بنعمة أنهم يسوسوننا وأمورنا، ويؤتوننا نسلنا والأرزاق، وحتى ... حتى ماذا؟ وإلى أن نتعسَّل في الآخرة بما يجري تحت الأنهار، وكل هذا يفعله المتفضلات، والمتفضلون علينا بحُكمنا، وأكلنا، وشربنا، وحتى ما دون ذلك، وليس إلا ابتغاء مرضاة الله ... انتزعني الرنين الثقيل، إنما مؤقتًا، أنا المهلوس العربي، شأن كل العرب؛ انتزعني من سباحتي في نهر الدماء.

٨

– هه، من أنت؟ واش كتعرف اشحال في الساعة هذه؟! آش ابغيتي؟

– هه! مالك! ياك لا باس، ياك ما طار لك الفرخ؟!

في سماء الصالون حلَّق اليمام، ومن زوايا خفية صوَّب القناصة بنادقهم فأردوه قتيلًا، واحدًا، واحدًا؛ زرافاتٍ ووحدانًا سقط اليمام، تكبَّد الغمام، وتناثر من سقف بيتي الريشُ داميًا.

– هذه ساعة وأنا كنضرب لك وأنت لا ترد!

– معك حق، هذه ساعات، أيام، ليل، أعوام، دهور، وأنا أسمع الضرب في الخارج، في أحشائي ودماغي، وحتى في دمٍ حسبتُني — وهو ينتحب، ينخب ويشخب، ويغضب مني لا من أجلي، وهو يلاحقني: زنقة، زنقة، من دار لدار — ...

– ومن بعد؟ اسمعني، عندي ما هو أهم.

– تظن عندك أهم مما يمكن أن يبيدني، أهلي وجيراني، حبيبتي، «زنقة، زنقة، من دار لدار!»

– نعم، عندي لك الأهم، خصك تسمعني، تسمعنا!

٩

سمعت كلمة «تسمعنا»، فقلت صاحبي هذا بلا شكٍّ مُنور Illuminé، أعرفه مفردًا، وها هو يتحوَّل جمعًا. نفخ بحماسٍ من خطه: لقد قرر«نا» أن ننزل إلى الساحة «بدورنا» وأن نقف وقفة ... رجل واحد، سنصدر بياننا، وسترى فسيكون الأول والأخيييييييير، وأنت، بطبيعة الحال، مع «نا»، واحدٌ م«نا»، أفي الله شك؟!

– ومن بعد، ماذا عندك غير هذا؟

– حتى هذه الساعة، جمعنا عشرين، ثلاثين، بل أربعين، ونريد أن نصل على الأقل إلى ست وستين توقيعًا.

– التوقيع، على ماذا يا صاحبي تريد جمع هذا العدد من التواقيع، من أجل ماذا؟

– على ماذا؟! من أجل ماذا؟! واش أنت أعمى، أو مرفوع في السماء؟!

ثم أضاف، وبالفصحى، لا فُض فوه:

– عهدي بك يا صاح «كذا» ...

فأجبته بوعيٍ فصيح: كُلي آذان يا صاح، وسأنبري لهم إذا صحصح الحق في ساحة الوغى.

– ما علينا، المهم نريد اسمك، وقِّع معنا، وبعد ذلك اذهب حيث تشاء، حتى لمولاي إبراهيم!

نريد ختم اللائحة، وإرسالها في أقرب وقتٍ إلى الصحافة، نريد الوصول إلى رقم ٦٦.

١٠

رنَّ المحمول: نريد توقيعك، نحتاج إلى الوصول إلى رقم ٧٧، نحن جماعة اللاتوخ، أنسيتنا، نحن رفاق «ظهر المهراز»؟

١١

رنَّ الهاتف كالمجنون: نريد الوصول إلى ٩٩، ألا تعرفنا، نحن «رفقة السلاح والقمر»، أم نسيت عهد الرفاق؟!

١٢

رنَّت الإشارة الموسيقية للإشهار، إشارة الطقس، إشارة موسيقى النشرة الأخيرة. هنا غنيت مع رأس:

هذه ليلتي وحلم حياتي بين ماضٍ من الزمان وآت
الهوى أنت كله والأماني فاملأ الكأس بالغرام وهات

رأيتهم بعدها المتفضلات، المتفضلين علينا يقبلون في حلل زاهية، ومواكب ما أدراك ما هي، صورهم تملأ الشاشة، تقريبًا ستملؤها إلى ما لا نهاية، لولا، لولا أن اقتحمت وجوه، قامات، أطياف غامضة سماءَها، وهي تزيح، تدفع أمامها وحولها لتأخذ الشاشة، وكأني بصوت مذيع بوجه غير مألوف، وصوت ساخن يعلن للجمهور ويكرر: «سيداتي، سادتي، بعد قليلٍ نتلو عليكم بيانًا هامًّا، سيداتي سادتي، بعد قليلٍ، بعد ليل، بعد ...»

على بلد المحبوب ودِّيني ...

١

كنتُ في الشرفة حين رأيته. الليل بهيم، والصمت مطبق، والساعة في حدود العاشرة. في مثل هذا الوقت، إما أشاهد برنامجًا تلفزيًّا منتقى سلفًا، أو أقرأ بتقطُّعٍ صفحات من كتاب. حين أضجر لا أجد أفضل من الخروج إلى شرفة الشقة، الحقيقة هي تيراس واسعة بها كراسٍ وطاولة، وحين تهجم الشمس تنسدل عليها واقية سميكة تصنع ظلًّا وافرًا. في الليل ألجأ إليها للاسترواح، لتدخين سيجارة، عمومًا في أوقات الصحو، أي عندما لا تهب الريح عاتية من علوٍّ، ولا المطر يصفع أفقيًّا، أحيانًا، لا أعبأ فأرتادها في هذه الأوقات أيضًا، أجد فيها دائمًا عديدَ مزايا.

٢

منها، مثلًا، أن التيراس مفتوحة مباشرة على السماء، وفيما تكون في الخارج ملتصقًا بالأرض، منحشرًا بين الأزقة وطوابير السيارات، وجدران العمارات العالية والواطئة معًا تخنق الهواء وتضيق النظر فتظهر لك السماء بعيدة وصغيرة ومقسَّمة إلى قطعٍ مربعة ومثلثة ومكعبة، وكثيرًا ما تراها محجوبة بالسحاب، أو مغطاة بغيومٍ في سباق مراتوني، من هنا يتغير كل شيء، ها هي مُعطاةٌ فوقك، سامقةٌ وقريبة كذلك، وتحتاج إلى أكثر من عينين ليمتد البصر في شساعتها، ويلاحق سباق الغيوم، وهي تتشكَّل في صورٍ وأوضاع غريبة، تختلف عن تلك الأشكال الهندسية المحدودة: المربع، المثلث، المستدير، فقط.

٣

منها أنك في التيراس تنفصل عن البيت الذي تقضي فيه نصف العمر تقريبًا، فتنفتح هنا على مساحة شبه فارغة، إذا استثنيت طاولة وكراسي من بلاستيك، وأُصصَ أزهار، وما تبقَّى من الجزء الأكبر فارغًا، لا حاجة لتأثيثه، تمرح العين فيه كما تشاء، والخطو يقطعه ذهابًا وجيئة بنشوة، وببعض الخيلاء كذلك؛ فأنت هنا تمرح وحدك، تملك هذه المساحة للترويح فقط، بينما آخرون مختنقون في غرفٍ معلَّبة، تراهم من علٍ، ولا تحتاج أن تتلصص عليهم كما يفعلون ببعضهم، بل أنت من مساحتك الفارهة تنظر إلى تحت، إليهم وهم يعبرون، صغارًا وقميئين، فتنفخ صدرك وأنت تستنشق هواءً نقيًّا لم تلوثه عوادم السيارات.

٤

ومنها، وهذه ميزة يغذيها الخيال دائمًا، وتنتعش مرة، مرة، وهي تلعب في مسرح أحلامك، أن هذه التيراس يمكن أن تتحوَّل إلى مطار، لا، لن تحطَّ فيه لا الطائرات ولا المروحيات، بل أنت طائرة تربض فيه بمجرد أن تترك الصالون خلف ظهرك، وتزيح الباب الزجاجي فتحط بقدميك فوق أرضيته، وتنظر إلى السماء حين تشعشع نجومها صيفًا، قد انتظم فيها شكلٌ مستطيل هو مدرجٌ مضاءٌ بمصابيح تلمع كعوينات القطط في الظلام، وحين تزفر فيك رغبات قوية تشتعل المحركات، وتصير تتهيأ وأنت تسمع دورانها يعلو، وتنتبه بإمكانك أن تستغني عنها لأن جناحين يتمددان منك للتوِّ، وزغَبًا يغمرك، وهما، رويدًا، رويدًا، يتحركان، وإلى أعلى بك يصعدان، نحو سماء أنت فيها، شيئًا فشيئًا، ستطير، ها إنك توشك ت...ط...ي...ر.

٥

كنتُ في التيراس، والليل على غير العادة في شهر أبريل أطبق على الأرض والبنايات باكرًا. الزقاق الطويل الذي تطل عليه عمارتي صامتٌ كمقبرة. عجبًا، الليلة سبت والساعة العاشرة ولا عابر ولا نأمة، هذه فعلًا هي La crise التي تجترها ألسنة الفرنسيين، ها هم يهجعون باكرًا، لا يصخبون ويسكرون ككل ويكند، وأنا فيهم ولست منهم، ومصعد العمارة خافت، والأضواء وهي مضيئة في مصابيحها شبه مطفأة، لا أحد يحتفل بعيد

ميلاده، لا ذكرى زواج، لا سهرةَ أصدقاء، لا أصدقاء، أو من يسهر عند سرير ميت، أو يرتِّل من كتابٍ مقدس، أو يعزف في هدأة الليل سوناتا لموزار، وأنا فيهم ولستُ منهم، وأنا لا أرى حولي إلا الظلام.

٦

انتبهتُ، وقد وخزتني لسعة برد، أني لم أكن وحدي، أن هناك مَن دخل في خط وحدتي، وها أنا وإياه في وحدة الليل نصبح اثنين. البرد يهجم أحيانًا قارسًا في شهر أبريل، وفي الليل يمسي صقيعًا. سيجارة أخرى تتدلى من شفتي، ويدي اليسرى تقبض على حاجز السياج الحديدي للتيراس فيزيدني إحساسًا بالبرودة. أقبض على الحاجز بقوة، كمن يخاف من سقوطٍ محتملٍ، وربما هو يتهيأ للقفز من هذا العلو، ينظر إلى تحت متسائلًا ربما، هل تكفي الأمتار التي دون الأرض ليطلق جناحيه، وتصبح عندئذٍ الأرض والسماء سيَّين، ثم يعود البرد يلسعني فأقفز متراجعًا هذه المرة إلى الخلف، لكن دون أن أنسحب نهائيًّا من التيراس.

٧

كلا، سأبدأ، سأبدأ من حيث لم أقرر شيئًا جديدًا. لأني، لأني بالصدفة لمحته، مرَّ أمامي، على امتداد بصري السارح، والمتراجع، فدخل بلا استئذان في خط وحدتي، لنصبح، من غير أي تعارف مسبق، أو مقدمات، في وحدة الليل، اثنين. ظننتُ أنها خرقة تتقاذفها الريح، عندما مرَّ الشيء للمرة الأولى سريعًا. عدت، فحسبته منديلًا تطاير من نافذة، أو أي ورقة كلينكس رماها متهور، وخطر ببالي أخيرًا أن يكون هناك كاتب لم يعجبه ما سطر فرماه مستنكرًا، وكفى. لكن لم يخطر ببالي أن أرى في الامتداد الطويل فوق الزقاق، قد بهت ضوءُه، قطعة سوداء تشبه سكينًا، وهي تمرق كالسهم بين اتجاهين ذهابًا وإيابًا، ويُسمَع لها حزٌّ وحفيف.

٨

«رحلوا وتركوني،
أهلي تركوني،

وحدي تركوني،
هكذا تركوني،
للبرد، للوحشة تركوني،
للجوع والعطش تركوني،
لهذا الليل الأسود تركوني،
لا رغيف، لا ماء، لا قميص، وتركوني،
لا حنان أمي، لا ظل أبي، تركوني،
أين أُوَلِّي وجهي وقد رحلوا، وتركوني؟
الليل بهيمٌ هنا، لا أحد لي هنا، وتركوني،
لا، لا، لن أموت هنا حتى ولو تركوني،
يا أمي، يا أبي، يا أهلي، لِمَ بالله تركوني؟!»

٩

نفذَت الأهزوجة إلى سمعي متقطعة، لكن واضحة ومغناة، سمعتها تتردد بصوت غناء شجي، فقلت هذا أخيرًا شخص حزين يعبِّر عن نفسه بالغناء، ويبوح لليل بأسراره. صوت عربي في ليلٍ فرنسي بهيم، ولم أكن أعرف في زقاقنا عربيًّا واحدًا، فلعلَّه عابر سبيل أو هو ضائع. أطللت فلم أرَ أحدًا يعبر، وليس إلا ما أحسبه منديلًا أو ورقة كلينكس يملأ فراغ الليل الصامت بين ذهابٍ وإيابٍ. أضحت الحركة متسارعة، بل هي كالسهم بين اتجاهين؛ إلى جهة اليمين تنطلق، لتعود بالسرعة ذاتها، لا منفذ لها من هناك حيث تصطدم، لا شك، ببناية السفارة الأيرلندية، وإلى جهة اليسار ترتدُّ من حيث أتت بسبب الجدار العالي لمتحف الرئيس شيراك؛ ها! هنا، كأني أفتح عيني للمرة الأولى لأرى ما يحدث في الليل البهيم، خارج التيراس.

١٠

ها هو عصفور أسود أو رمادي، سريع الطيران، مُتموجُه، كأنه يحاذر الاصطدام فيتجنبه. هل خرج من المتحف المليء بالأشجار والغضارة، وحين أُغلقتْ ممراته الزجاجية لم يعرف كيف يعود إلى أيكه؟ في عشيات الصحو يحدث أن أتسلى برؤية أسراب الطيور تتكاثف في

حلقات دائرية، وهي تزعق بملء حواصلها، وتقوم بألعابٍ بهلوانية، حين تراها تتشكَّل أمامك تحسبها تخطيطَ كوريغرافيا مسبقًا، وهي ذي تؤديه بنظامها الطبيعي الخاص بها. في طُرفة عين يمرُّ العصفور فأكاد أراه وهو في حجم قبضة يدٍ؛ يدي. أقبض بها على السياج الحديدي لأحافظ على توازني وأنا أتابع تحليقه اللانهائي، مثل جماعاته، أتابعها إلى أن أصاب بالدوار، ثم وهي تقل وتتفرَّق، تباعًا، والليل يهبط تدريجيًّا، فتختفي تمامًا، فيما هو لا يكفُّ عن الطيران.

١١

«رحلوا وتركوني،
أهلي تركوني،
وحدي تركوني.»

الصوت منه، وهو المغني، وأنا لا أصدق، لا سمعي ولا بصري، وأنا أتعجب. أي عصفور هذا الذي يسرح وحده والساعة جاوزت العاشرة ليلًا. الصغار جميعًا ناموا الآن، وبعض الكبار، أيضًا. يفترض أن آوي بدوري إلى الفراش، فالليلة الليلُ بهيم، والبردُ يخز، والأفضل أن أنسحب من التيراس، والرؤيةُ تكاد تنعدم في الخارج، ولا نأمة، بلى، هناك حركة هذا المجنون، رفيفُ جناحيه وحده يقطع الصمت، وعيناي تعبتا من كثرة النظر إليه، والخوف عليه من أن يسقط متهاويًا بتعب تحليقِه الطويل، كما وقفت أنا طويلًا هنا وحدي، ليس في الشقة مَن سأكلمه لو دخلت، ولا خارجها، من سيرد تحية المساء لو حييت، إنما الليل يتقدم وهو بهيم، والبرد يخز، فلا مفرَّ من الدخول، لا مفرَّ.

١٢

«بسس! بسس!» وصلني النداء وأنا أرجع بخطوي إلى الصالون، ربما هو صفير في أذنَي.

«بسس! بسس!» هذا نداء حقيقي، لكن ممن؟ أنا أسكن في الطابق الأخير، ومن حسن الحظ لا من يواجهني، واللصوص لا يتطاولون علينا هنا. كل ما في الأمر أن رأسي يدور، وإلا ينبغي أن أصدق بوجود العفاريت، بكائناتٍ خفية تقيم معي في هذا البيت، وها هي الآن استيقظت، وتبدأ حياتها. الجن موجودون عند المسلمين، والأرواح عند الأفارقة، وهم يعيشون في الظلام؛ ولذا يستيقظون ليلًا، ويتنقلون في الغرف، وما أسمع هو غناؤهم،

وحوارهم، مثلنا نحن البشر في ضوء النهار، لذلك سأنسحب وأترك لهم الليل، يبسبسون فيه ما يشاءون!

١٣

«هكذا تدخل إلى مضجعك وتتركني! أنت أيضًا تتخلى عني!» التفتُّ فلم أجد لا إنسًا ولا جنًّا، إلا هو. حدقت فيه، فحدق فيَّ كأننا نِدَّان. ارتبكت قبل أن أسحب رجلي من الداخل، وأعيدها إلى التيراس. متأكد من أنه هو، رغم كل الشكوك التي خامرتني، كان قد أنهى أخيرًا تحليقه ذاك، ووضع قائمتيه على السياج، وهو يكلمني معاتبًا. لكني أعرف أن الطيور حذِرة ولا تقترب هكذا من الآدميين ببساطة، فقد خبرت هذا هنا في هذه التيراس عن كثبٍ. كان يحلو لي أن أجلب الكرواسان مع الشاي وأتناول فطوري، ثم أبعثر لها الفتات، وأتظاهر بالتجاهل. ولم يكن الطائر الأول يحفل بي، اللعين يحوم حول النعمة، ثم يطير تظنُّه عافها، وها هو بعد هنيهة عاد برفقة اثنين، يستدعيان آخرين، وتتسع الحلقة إلى كثرة تزحف على الفُتات حين تطمئن أني ابتعدت، فلا أراقبها إلا من بعيدٍ، مكبرًا فيها تضامنها العظيم.

١٤

«ألا تطعمني؟ ألا تسقيني ماءً، فأنا ظمآن؟ أوَلم ترَ كيف كنت أحلق منذ ساعة، وأنت لا تبالي. الناس نيام، وأنت يقظان، منشغل بنفسك، كعادتك، لا تتخلى عنها ليلًا ونهارًا. أنا أعرفك، أرقبك من علٍ، رغم أن الشتاء الطويل باعد بيننا. لا تنكر أو تحتج بالسهو والنسيان، لعبة قديمة، هه، نحن معشر الطير لا ننسى، والدليل أني عدت إلى حيي، رغم أنهم قصُّوا الفروع المتشابكة للشجرة العملاقة التي تتوسط عمارتنا، احتجَّ السكان أننا نوقظهم باكرًا بتغريدنا، بينما نصبر على ضجيج موسيقاهم وأدخنتهم الخانقة، وروائح البشر، هل تشم هذه الروائح، فيها كثير من العطن، ألا ترى كيف ينحنون لجمع بعر كلابهم ويأنفون من ودقنا؛ تبًّا لهم، أوه، معذرة، فأنت منهم، لكنك مع ذلك مختلف عنهم، أنت وحيد، وحيد مثلي، ولذا قصدتك، ويقيني أنك لن تتخلى عني، ستطعمني، ستروِيني، وهناك الأهم سنفعله سويًّا.»

١٥

ألم أقل لكم إن الجن تستيقظ في الليل، وتأخذ أشكالًا وألوانًا، ولها كل الألسنة، هه!

– كلا، لستُ جنيًّا، أنا رفيقُ ليلك، نديمُك، مؤنسُ وحدتك. أشكرك على الضيافة، ولطفٌ منك أنك تريد أن تأويني. عندي طلب أهم، سأدين لك مدى حياتي إن لبَّيته لي. اقترب، أريد أن أهمس به، أن أبثَّه في قلبك، أعرف أنك مدمن حب، أنا أيضًا، ولذلك قصدتك، ولن تخيِّب أملي فيك، أليس كذلك يا صديقي؟!

– هذا هو الخبل بعينه!

– أي خبل؟ ألم تضجر من مقامك في هذه الأرض، انظر، ها أنت تأرق كل ليلة والقوم نيام. هل لك أحلام تشبه أحلامهم؟! ثم أخاف عليك إن بقيت هنا أن تفعلها، وإلا لِمَ تطيل النظر من هذا العلو إلى أسفل، وأراك تتحفز، ثم إن الأمر سهل، المَسْني بحنوٍّ، وسترى كيف سينبت لك زغبٌ، وجناحان، وفي دقائق نطير ونلتحق بهم، صدقني!

١٦

لا شك أنه سحرني، فقد شرعت فورًا في تنفيذ طلبه، أمرِه. أخذته إليَّ، ورحت أمرِّر أصابعي على جسيمه الهش، لم تكن إلا عظيمات مخفية تحت الريش، وهو يرتعش في يدي، وجسدي يرتعش فوق التيراس، وفي الزجاج المرآوي تبينتُني أتغيَّر؛ لحمي يكسوه الريش، وذراعاي يتجنَّحان، رأيتنا بعد قليلٍ ننشر أجنحتنا ونطير. ارتفعنا فوق الزقاق، واخترقنا الليل البهيم صاعدَين، محلقَين، بين نجيمات خلابة كانت تنير لنا الطريق، والمدينة هاجعة تحتنا، الأرض كلها ملكنا، وأنا أحس أنها لا تكفيني، أتبع طائري الذي صار يتقدَّمني، وهو التحق بسربه، وهم عادوا فضمُّوه إليهم، وقد أطلقوا زغاريد فرحين بلقائنا، وهو أطلق حنجرته بصوتٍ شجي، فسمعته يغني: «على بلد المحبوب ودِّيني، زاد صبري، والبعد كاويني، على بلد ...» آه!

ملاك في الحديقة

١

نحن في منتصف شهر أغسطس، وهو في باريس وقتٌ شبه ميت. أغلب السكان غادروها للعطلة، ولم يبقَ إلا المناوبون في العمل، أو المنبوذون، أو من يفضِّلون البقاء فيها خلال هذه الفترة بالذات. أنا من هؤلاء، أنعم بالهدوء التام، في العمارة، والحي، وأزقته، وحين أمشي أسمع خطوتي، وأرى ظلي، كما أشاء. ثم إني أستحلي الفراغ وغياب الوجوه المألوفة. رأيتها في الأعوام الماضية، في أخرى لاحقة، وسأراها، فلا بأس إذن إن اختفت عن ناظري مؤقتًا، خاصة في شهر أغسطس، أعتبره مِنَّة من السماء في هذه المدينة الصاخبة، العام كله.

٢

نحن في منتصف أغسطس، لكنه هذا العام مختلف في باريس عن الأعوام الفائتة. الطقس غائم ومُشتٍ منذ شهر يوليوز، ولم ننعم بالشمس إلا أويقات؛ إذ ظلَّت السماء متلبدة، وفي الليل لا تلمع في السماء أي نجمة، ويقرسنا البرد فننام تحت غطائَين. أظن أن هذا الطقس الكئيب طرد كلَّ من عاند بالبقاء في هذه المدينة طلبًا للسكينة، أو لأي سبب آخر. حين أغادر شقتي للخارج أنظر إلى جميع الاتجاهات، فلا أرى أحدًا، ويُخيل إليَّ أن الدنيا أقفرت، فأكفهِر، أفضِّل العودة، لأنكفئ على نفسي؛ خيرٌ لي من مواجهة الفراغ، أقول.

٣

هذا الصباح ضاقت نفسي بشدة، وزاد من غمي مطرٌ لم يتوقف عن الهطول ليلة البارحة. أحب المطر، لكن خارج هذا الفصل، والشهر بالذات. سمعت أجراس الكنيسة القريبة

من زقاقنا تدق بإلحاحٍ وتناوُب، وهنا تفطنت أننا يوم عيد صعود العذراء إلى السماء، الموافق كل سنة لتاريخ ١٥ أغسطس، يومنا هذا، فخمنت أني إن خرجت إلى الشارع سأجد بعضَ الناس، والحياة تعود إلى التململ ولو قليلًا وعابرًا، وتفاءلت خيرًا وأنا أسمع نشرة الطقس تنبِّئ بانفراجٍ وشيكٍ تتلاشى معه السحب، وتنفرج السماء عن إشراقات، على الأقل لبعض الوقت.

٤

اعتبرت هذا حافزًا وإشعارًا لا يؤجَّل، عليَّ أن أغنم لحظته، فارتديت ملابسي على عجلٍ، وفي دقيقتين كنت أمام باب العمارة، الزقاق خالٍ كما هو، ونوافذ العمارات المجاورة كلها مغلق، سكانها في مصطافاتهم، فقلت أقصد المقهى الوحيد المفتوح في الحي كله، قرب مدخل محطة مترو La Tour Maubourg، سأشرب قهوة، وأقرأ جريدة، وربما أسمع لغو الصيف، وأطلق قدمي في الأزقة المقفرة، سأمشي براحتي دون زحامٍ، ولا اصطدام مع عجائز وخادمات عربيات يرافقن الكلاب لقضاء حاجتها، وربما، ربما أشرقت الشمس بعد قليلٍ، وهذا مناي، آه!

٥

وأنا في طريق العودة من مقهى Le métropolitan سمعت مَن يكلمني واستغربت لم أرَ أحدًا، عجبًا، لكن الصوت تردَّد واضحًا في أذنَي يخاطبني: «لا تستعجل العودة إلى البيت، الشمس ستشرق الآن.»، وكذلك كان. تحسَّست أول دفئها على ساعدَي العاريين، وشخَصَ ظلِّي مفروزًا أمامي وأنا أمشي فوق أسفلت ممتلئ بنورها، وهي تتخلَّل بين أغصان أشجار حديقة الحي، كنت أمرُّ حذاءها، فسمعتها بدورها تكلمني «كفاك تقبُّع في بيتك، ألم تتعب من وحدتك، ادخل إلى الحديقة لتغير جوَّك، ادخل، لا تتردد.»

٦

دفعت الباب الحديدي القصير الذي يتوسط سياج الحديقة من وسطه الغربي، وتقدمت أجرجر خطوي بتراخٍ، أوزع نظرات كَسْلى يمينًا وشمالًا. الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا، حسب التوقيت المعلَّق في برج الكنيسة. الحديقة صغيرة يتوسطها تركيب خشبي

للعب الأطفال، وعلى جوانبها كراسٍ مديدة، كنت ألاحظ عجائز أو عاطلين يقتعدونها وهم ينظرون أمامهم إلى الفراغ. واليوم هي شبه فارغة، إلا من امرأة تراقب طفلتها تلعب، وشاب برفقة صديقته يتحدثان ويدخنان، وأنا المدعو من طرف شجرة، أظن ولا أحد بعد، أظن لا أحد بعد.

٧

كان الصوت الذي دعاني للخروج محقًّا، فها هي الشمس من العلو بدأت تضرب بقوة، فأعطي وجهي لها لأتمتع بأشعة غابت منذ شهرين تقريبًا، وفي هذا الشهر بالذات، ليستقر الغيم ويهجم المطر، وتفرغ الأحياء، وتبقى وحدك إن لم تسافر مثل كل القطيع الباريسي تكتنز وحدتك، راضيًا أو مكرهًا. أما الآن، وقد حضرت الشمس، قلت، فلا بأس، أنا راضٍ عن كل شيء، وهذا الحمام، أيضًا، يتقافز مرِحًا على مقربة مني يناوش ديدانًا لا يجدها، وعصافير تنط بدورها غير بعيدٍ بحذرٍ، ليس عندي ما أطعِمها، ولا شك أنها سعيدة مثلي بعودة الشمس.

٨

لم أنتبه لحضورها إلا بعد أن أزحت ذراعي كنت أغطي بها رأسي اتقاء حر يتصاعد. امرأة شابة، جلست في أريكة تفصلنا بمترين، ترتدي تي شورت أسود صوفيًّا، وجينزًا أزرق، ونظراتها تحوم إما حولها، أو ... نحوي. قمت غيرت مكاني بسبب الأشعة القوية، فرأيتها تفعل مثلي، ولما عدت إلى مكاني الأول تلكأتْ لتعود حيث كانت تجلس. صرفت عنها نظري واهتمامي، أخذتني جلبة الشاب ورفيقته خلفي، يتحدثان بالبرتغالية ويقهقهان، لم أكن أريد أن تتصور بأني أراودها، فليس هذا ما أحتاج إليه، وأنا مرتاح تمامًا في وضعي هكذا وحدي.

٩

ظننت أني سمعت نهنهة عن يساري، حيث كرسيُّها. أدرت رأسي محاذرًا ناحيتها مستطلعًا فرأيتها تبكي فعلًا بتقطعٍ وتوترٍ على وجهها. عدت فخفضت نظري احترامًا لحالها، فربما مات لها قريب، أو فارقها حبيب مثل الفتاة التي كانت تقض مضجعنا كل ليلة بهستيريا

بعد أن طردها رفيقها، إلى أن أخذوها إلى المعزل، وغيره، وللناس أحزان، وعلى كل واحد أن يتدبر حزنه كما يستطيع، قلت الظاهر أنها لا تستطيع غير البكاء، ثم تمنيت، وهي تنهنه، أن تواصل؛ فربما ستفرج عنها غُمتها، سترتاح، ستنسى تدريجيًّا ذاك الفقيد أو الحبيب.

١٠

فاجأتني وهي تقوم من قعدتها وتقترب مني، طويلة القامة وبقصة شعرها الأسود نصف مرتب، طلبت مني بارتعاشٍ هل عندي نارٌ لسيجارة في فمها، وقفت متأسفًا إني لا أدخن، لكني لم أصرفها؛ إذ التفتُّ إلى الزوج البرتغالي أسألهما عن بُغيتها، وهنا هبَّت الفتاة المرافقة نحو الشابة الحزينة، أخرجت ولَّاعتها، وهما على أمتارٍ مني، رأيتها توشوش في أذنها، قدَّرت أنها تواسيها وهو جميل، ثم، وبعد أن أشعلت لها سيجارتها، كفكفتْ دموعها، وأخذتها إلى حضنها، عادت الحزينة إثرها إلى مقعدها، وطفقت تنفث الدخان وهي تتأوَّه بعصبية.

١١

عدت أستمتع من جديدٍ بأشعة الشمس التي افتقدتها طيلة هذا الصيف، وشعرت حقًّا بمتعة لم أتذوقها منذ زمن، ومع الهدوء السائد، وصدى تراتيل قادمة من الكنيسة المقابلة للحديقة، غمرني حبورٌ عجيب فتح شهيتي قوية للحياة، ولبشائر غامضة، وانقطع دفق شعوري فجأة وأنا أسمع البكاء يعلو بقربي، هذه المرة كانت الشابة الحزينة قد وضعت وجهها بين كفَّيها وهي تنتحب، تصمت، تنهنه، ثم تستأنف لتنتحب بوتيرة تصاعدية تزيح عقبها كفَّيها لتجيل بصرها حولها، وتوجه إليَّ أنا بالذات نظرات، بدت لي مزيجًا من الاتهام والشكوى والرجاء.

١٢

تنازعتني مشاعر شتَّى، مع مخاوف. خشيت أن تكون الباكية بلهاء، من نظراتها وحركاتها المتقلبة. أن تكون عُصابية بطريقة ما، فتنقلب عليَّ، أنا المسالِم، المنسحِب من حياة الناس، قد تصرخ فجأة، قد تسقط مهلوسة بالصرع، كل شيء محتمل مع هذا النوع من البشر،

رغم أن هندامها لائق، وغير ما وصفتُ فإنك جاعلُها واحدةً جاءت إلى الحديقة وجلست على الأريكة، أي مثلي تمامًا، لتغنم لحظات من حرارة شمس باتت تزور غبًّا، في فصل صيف قذر حقًّا، يزيد الصمت والمدينة المقفرة مطرًا وغيمًا وبردًا، ويعلم الله ماذا عندها أيضًا هذه التعيسة؟!

١٣

غلَّبت شعوري أخيرًا على حذري، كابتًا وساوسي، وقد تواصَلَ نشيجُها، لم أقوَ على تحمُّله، فانتقلتُ إلى أريكتها وجلست بجوارها. بدأتُ بكلمات روتينية للمناسبة: هوِّني عليك؛ لا بأس، ومن قبيله. ثم وضعت يدي، مثل عم أو خال، أربت على ظهرها بحنوٍّ، وأسمع بكاءها يخف خفقانه تدريجيًّا مع ربتاتي وكلماتي المواسية، الهامسة. لم أكن مقتنعًا بما أفعل وأقول؛ إذ فضلًا عن أنني لا أحب هذه الأدوار التي نراها عادة في الأفلام العاطفية، أو في روايات من نوعٍ ما، أعتقد أن لا أحد يمكن أن ينوب عن شخصٍ في حزنه، والمواساة توافقٌ اجتماعي ليس إلا.

١٤

سألتها أخيرًا بعد تردد: «خبِّريني يا ... آنسة ... سيدتي ... ماذا بك؟ هل أستطيع أن أفعل شيئًا من أجلك؟» أكَّدتْ، وهي تعتدل في جلستها: «بل آنسة، فقط» عقَّبتُ: «لا بأس، لا بأس» لأمنع الفراغ وبكاءها خاصة، ثم مكررًا: «هه، ماذا بك يا آنسة؟»

– «لا، لا شيء، العفو، كل شيء ...»

ولم أجد بدًّا من استئناف الربت أسمعُها عادت إلى النهنهة ... «كل شيء، هل تعلم أنني ... هل تعلم ...»، «ماذا؟ قولي، هه، لعل هذا سيساعدك.» وكأن عبارتي الأخيرة حركت فيها غصة عميقة، لتنفجر بحرقة: «ليس ... عندي ... ليس عندي صـ... أقول ليس عندي أصدقاء، لا صديق لي!»

١٥

للتوِّ سمعت من داخلي شخصين يتحاوران:

– ها، أرأيت، إنه ما خفتُ منه بالضبط، أرأيت؟!

– ماذا؟ لا تبالغ كعادتك، فالمرأة فاضت بما في خاطرها، وهذا كل ما في الأمر.

– هكذا، إذن، تعتقد أنه مجرد فيض خاطر، ولماذا تفيض عليَّ أنا بالذات؟

– لأنك الشخص الوحيد الذي وجدتْه قبالتها، ثم لا تنسَ أنك بادلتها الحديث، والكلام يجرُّ بعضه، أليس كذلك؟

– نعم، ولكنك لم تسمعها تسألني هل أنا مثلها بلا أصدقاء، أم أني كذا، ثم تزيد تسأل هل أسكن الحي، وهل أحضر إلى الحديقة يوميًّا أم أنا عابر سبيل.

– لم أسمع شيئًا من هذا، والأغلب أنك، كعادتك، تزيد من رأسك، ثم لا أجد عيبًا في أسئلتها.

– هذا رأيك، أما أنا فلا أريد أن أتورط، فهي تريد صديقًا، تريد حبيبًا أو أي مصيبة أخرى!

– اسمع، ما دامت قد قصدتك فلا تخيبها، تدبر لك طريقة، ثم إنك، رغم نفورك من الاختلاط، رقيق الطبع، محبٌّ للإنسانية، ها، أليس كذلك يا صاح؟!

١٦

تركت الحوار المتداوَل في داخلي بين هذين الشخصين اللجوجين، لأن ما حدث في الحديقة، أو ما ظننته، أو تصورته حدثَ أخرجني من سهومي ليعيدني إلى مواجهة اللحظة التي كنت فيها مع الآنسة الحزينة، وجهًا لوجه مع أزمتها، أو ما تعتبره مأساة لا توقف بكاءها. رأيت من بين السماء التي عادت تتلبَّد سحبًا خفيفة تخفي شمسها، وبين أشجار الحديقة كثيفة الأغصان ما يشبه هيئةَ بياض تتخللهما، وتتشكَّل رويدًا، رويدًا. رحت أتابع الهيئة والآنسة الحزينة تتابعني مأخوذة، وأنا أشير إليها جهة ما أرى، لعلَّها ترى أخيرًا ما صرت أرى.

١٧

قلت لها «أَوَترين ما أرى يا آنسة، انظري هناك ...» أجابتني ونهنهتها تخف: «ماذا بالضبط، لا أحد! لا شيء!»

– «أنت لا ترين جيدًا لأن الدموع تغطي عينيك، كفكفيها يا ...»

– «اسمي مارغريت، ولو صرنا أصحابًا يمكنك أن تدعوني مارغو.»

ارتبكت خوفًا مما تحسب، وعدت إلى موضوعنا: «هناك بين شجرتين، ملاك معلق بينهما.»

– «ملاك؟ بين شجرتين؟ معلق؟»

زدت مشيرًا، وأنا أتقدم حيث أشير: «هناك، قريبًا، ملاكٌ طبعًا، وهو يطلبني، يطلبنا، يا لبهائه، يا ...»

لَمَّا وصلت إلى حيث هو، غمرني جناحان أبيضان، وهمسٌ يقطر في أذني بكلامٍ كالعسل.

١٨

عدت إليها حيث بقيت جامدة، وسحبتها من يدها، فاستسلمت لي، أستغرب لحالي كيف لم أفكر في الهداية التي حضَّ عليها الملاك. كانت الكنيسة منتصبة ببنائها الشامخ أمامنا خارج سياج الحديقة، فاجتزناه، فصارت التراتيل تصل إلينا مموسقة، ونحن، هي أيضًا التي استسلمت على كتفي، نتموَّج في السكينة، وكلما اقتربنا من المبنى أرى أقدامنا ترتفع سنتيمات إلى أن وصلنا إلى مدخلها في العتبة المتدرجة. هنا تراءى لي من جديدٍ ملاك الحديقة مغمورًا بأبيض شاسع، يمدُّ نحونا يديه علامة الترحيب، وحين مررت أمامه همس مرة أخرى بكلامٍ عسلٍ.

١٩

دخلنا الكنيسة ونحن نعلو أكثر، صفوفها الأمامية والخلفية ممتلئة بالمصلِّين، والقس الكبير يلقي الموعظة في يوم صعود العذراء هذا، وفجأة تنازل شاب لطيف عن مقعده في صفٍّ خلفي، فشكرته وأجلستها فيه قد صفت عيناها، ونظرت إلى المحراب في العمق فظهر لي الملاك يلوح لي بإشارة توديعٍ، وقد أرسل لي آخر كلماته بثثتُها للتوِّ في سمع الآنسة الحزينة: «مارغو، هنا يمكن أن تجدي صديقًا، أصدقاء.» وطفقت أنسحب، وأنا أسمع المؤمنين يرددون: «أيتها العذراء صلي من أجلنا»، فردَّدت معهم، وأنا أنسحب بأناة: «أيتها العذراء صلي من أجلها.»

طعم الكرز

١

هذا المساء، مِثل كل مساء سابق، ولأمرٍ ما، هو عندي مساءٌ مختلف.

٢

لا شيء في بَرنامجي سيتغيَّر، لا أريد أن يتغيَّر، أشعر أنه يجدر بي ألَّا أتغيَّر وأنا على عتَبة الستين، وبعد أن تخلَّفتُ عن قطار الزواج قصدًا، وقد أصبحت الوحدة هي زوجتي وخليلتي، في آن.

٣

سأكون قد تركت شركة التأمين في السادسة مساء، ووصلت إلى النادي في السادسة والنصف، وشرعت في تماريني الرياضية في السابعة، وأنهيتها في الثامنة، وفي الثامنة والنصف غادرت النادي، منتعشًا بحيويتي تفيض على وجهي، خاصة من أثر الدش الساخن.

٤

إذا جئتم للحق، فالإنعاش الحقيقي الذي يتفتح في مسامي يوجد «عند باتريسيا». هو اسم المقصف الذي أرتاد، واسم صاحبته، من باب أولى وأحرى، واسمنا، نحن أيضًا، زبناءها الاعتياديين: «زبناء باتريسيا» كما يحلو لها أن تتدلَّع وهي تشرب نخبنا بدلالٍ ونخوة

المالك، تعطينا بوسة للواحد قبل أن تسقينا، فسميناه «البوساج». ونحن عند باتريسيا جماعةٌ، وواحدٌ، وواحدٌ في جماعة، ثم واحد، أي كل وهمُّه.

٥

هذا أفضل، فكرت دائمًا. أن تكون وحدك يعني أنك حر. ولا يمكن أن تكون حرًّا إلا إذا كنت وحدك. جان ميشال يعاضدني في هذا الرأي، بارك الله فيه. حين تتصدى لي الجماعة تصفني بأني Associable (أي منفر)، كائن لا اجتماعي، أو أي صفة أخرى مقعَّرة، ينبري لهم، يشنِّع وصفهم، منتصرًا لموقفي، وهو يطلب شرابًا للجميع.

٦

في هذا المساء بالذات، لم تكن لي أي رغبة للعودة إلى الاستوديو الذي أؤجر، منذ ما لا أذكر. أنام فيه، فقط، وأبدِّل ثيابي، وأغتسل، والباقي كله أحصل عليه في الخارج. مشكلتي في الاستوديو هي علبة اسمها جهاز التلفاز، قدمتها لي باتريسيا ذات عام برسم عيد ميلادي، وهي تغمز: إذن لا مانع لديك، أتفرج عندك بين الفينة والأخرى.

٧

لم أحتج لما طالت الفينات، لم أطلب من باتريسيا أن تأخذ عني علبتها لأنها ترهنني بهذه الفينات. ما ضايقني هو العادة التي أخذت تستحكم فيَّ، بسببها هي. أن أمدَّ يدي كلما صرت في الداخل، وأضغط على الزر، فتأتي الصور متلاحقة، يسبقها الصوت، وهما معًا، كل الآخرين الذين يهجمون عليَّ بلا استئذان. يسلبونني نفسي، يقتحمون عليَّ وحدتي، بينما أنا وحدي، حين آوي إلى الاستوديو فلكي أخلو إلى نفسي، أن أكون وأبقى وحدي!

٨

الحقيقة أن هذا المساء لم يكن ككل مساء؛ لا يوجد وقتٌ يشبه الوقت، ونحن إنما نتوهم ذلك. هذا المساء لم أكن متوهمًا على الإطلاق، رغم أن الحياة لا تطاق أحيانًا بدون أن تتوهم فيها.

كنت على غير العادة قد قررت العودة إلى الاستوديو لأنام مبكرًا، فأجمع عظامي المفككة، ثم سأستريح قليلًا من صخب وشغب الجماعة، فضلًا عن فرقعات باتريسيا ذات الهمة والشأن!

٩

لكني عدلت عن قراري في اللحظة الأخيرة، نادرًا ما أتراجع عن قرار، إنما كان ما خلفه أقوى من أن أمضي فيه. والخارج هو الذي حسم، رغم أني لا أبالي به عادة، وإلا سأصبح أسير الكبيرة والصغيرة. وهنا، حيث أعيش، منذ ما لا أذكر، لا تتوقف الأحداث، وإذا لم توجد تصنعُها الصحافة، أو يروجُها الكذابون، والمولولون بأنواع المصائب في المقاهي والحانات.

١٠

لا أهتم عادة لا بالسياسة، ولا أخبار المجتمع، والكوارث التي تقع يوميًّا في أنفاق المترو، وبأرقام البورصة أحيانًا، لأنها مصدر ربحٍ، ومصدر خوفٍ لدى كثير من البشر، وأنا أحب أن ينتشر الخوف لينتعش قطاع التأمين. كلما انتعش تربح الشركة، أربح معها، وكلما ربحت أزداد أمانًا لتوفير لوازم وحدتي. لكن الظاهر أن بيضة هذه الوحدة تكسَّرت اليوم بالرغم من قراري، فما حدث حشر البشر في بعضهم، وتداخل الكلام على اليمين والشمال؛ أي ضجيج!

١١

رفضت في الشركة أن أعلق، أو أردَّ على تنبيه أحد: «إيه، لقد نال النهاية التي يستحق؛ المجرم.» «ستصبح الحياة أكثر أمانًا بزواله.» «ليذهب إلى الجحيم!» ومثله كثير. لا أحب الدخول في هذا السوق، ثم ما علاقتي أنا بالإرهاب وتوابعه؟ ثم لماذا يزدحم الخلق، أليسوا يطلبون الموت؟! ولهذا لا أحب الاختلاط بهم، الاختلاط عمومًا، ما عدا أصحابي، بالأحرى الزبائن الاعتياديون «عند باتريسيا»، وهؤلاء مسالمون على الأقل، ولن يفجر أحدٌ منهم نفسه!

١٢

لم أكن قد شغلت نفسي يومًا به. ما اسمه؟ آه، هذا ابن، Ben Laden، وها هو يتسلط عليَّ دفعة واحدة، وفي اليوم الذي قررت أن آوي مبكرًا إلى فراشي، لأجمع عظامي وأخلد إلى وحدتي.

١٣

لم يبقَ بيني وبين عمارتي سوى مائة متر، حين قفلت عائدًا في الاتجاه المعاكس. طنَّت في أذني ذبابة طنينًا قويًّا: إذا أنت دخلتَ إلى الاستوديو، فستفتح التلفاز، وستأتي الصورة، ويُدوي الصوت. وبما أن الجدران، وأروقة المترو، والصفحات الأولى للجرائد، وسواها، أُلصق عليها كلها صورة واحدة، وحيدة، فهي نفسها ما سيملأ الشاشة، لا شأن لك به وبها، وهذا سيجهض مشروعك، لن تنال مرادك، لن تعانق حبيبتك، وحدتك، لن ...

١٤

جرجرت جسدي المتداعي جرًّا «عند باتريسيا». هناك على الأقل، سأرى الوجوه الأليفة، كأني أراها، وأسمع كلامًا كأني لا أسمعه. وهناك ما أظن أنهم سيأتون على ذكره. هنا يستخفون بالسياسة، ويقولون «طز» لرئيس الجمهورية، وقد أجاريهم ولا. هكذا في النهاية، كل واحد يشرب كأسه، وكل واحد داخلٌ في سوق رأسه، كما يقول المغاربة، منهم مغربي يحشر أنفه في مجموعتنا، أظن اسمه المدني، المديوني، المدايني، أظن ... لا أهمية لذلك.

١٥

حين وصلت «عند باتريسيا» لم أجد الجو أفضل حالًا. جماعتنا حاضرة كلها، إلا أنهم صامتون، ومكتئبون، على غير العادة. باتريسيا نفسها التي تتصنَّع المرح مكتئبة بدورها، منكفئة الوجه على صندوق الحساب. وفجأة شرخ الصمتَ صوتٌ كالحشرجة، كالبكاء؛ هذا صوته، وتعجبت، ثم أنكرت: هل يعقل أن يكون هو؟ أم هي أوهامي تلعب بي، تغزوني كلما هجم الليل؟! كلما سعيت أبحث عنها، لآخذها كي تدفئ فراشي، وتحضن وحدتها ... وحدتي.

١٦

في المرة الثانية تأكدت أنه هو: جان ميشال، لا أحد غيره، يجهش، نشيجه يتعالى، وهو يغمغم بكلماتٍ متقطعة، نصف منطوقة، نصف مسموعة، التقطت بعضها، هكذا: لا ... لا ... أحد ... يحبني ... لا ... لماذا؟ ... لكم ... فعلت ... يحبني ... تمتد له ذراع من هنا، تمتد أخرى أقرب أو أبعد، يدٌ تربت، لتضم. بدا كأنه في هذيان، قد تجاوز الثمَل ولا يبدو أنه، أيضًا، سكران. لم أرَ جان ميشال يومًا هكذا، ولا عرفته شقيًّا، ثم، هوب، كيف أناخ عليه كل هذا الحزن بكلكله، كيف؟!

١٧

خمَّنت أنه مدير شركته، وزملاؤه في المصلحة يشتكي دائمًا من كيدهم وخِستهم، بسبب تفوقه، وذكائه، ولأنه يغوي النساء جميعهن، بملاحته، ولباقته، كذلك. ثم تنبهت أن فطنته أكبر من هؤلاء. وعدت افترضت الأمر صحيحًا فوجدت أنه لا يستحق هذه المناحة؛ إذ من يحب هنا آخر، نحن نعيش هنا مواضعات، وتوافقات مرتبة تناسبنا، وفي كل لحظة يمكن للحلقة أن تنفصل فتنقطع السلسلة، وهنا ينكشف سريعًا ما في جوفنا، وأظن كأس جان ميشال قد فاضت.

١٨

غمزتْ باتريسيا نحوي لتهمس لي بسرعة: إنها تلك الأفعى، لقد لوَّعت قلبه، وثقبت جيبه، وهو تفانى في حبِّها، أنت تعرف طيبته، وحتى هشاشته، ثم بلعتها الأرض، لم تعجبني يومًا، أنا أعرف بنات جنسي، ولا تظنني أغار، خاصة من تلك الرقطاء المجلدة، وطالما حذرته وهو يغدق عليها بالكئوس: عزيزي جيجو، انتبه أين تضع قدميك، هذه ليست لك، وهو يفرط كلما حذَّرت، وهي تسرف حتى لا مزيد، والنتيجة، كنا نظنُّه جبلًا، وها هو يجهش كالأطفال!

١٩

لم تقنعني رواية باتريسيا، التي عرضت على جان ميشال شراكة المقصف، شريطة الاقتران بها، وقد سفَّهها أمامنا معلنًا بأنه مرتاح في عزوبته اليوم، وإذا غيَّر رأيه، أو غيَّرت أنا،

وهو يشير لي، وحتى هذا، يشير إلى المغربي الذي يأتي وحيدًا أبدًا، يكون حديثًا آخر. لا شك أن له همًّا آخر لا يريد البوح به لأحدٍ، لي أنا، أيضًا، نديمه الأول والدائم، وها قد طفح به الكيل، في وقت ما يطفح بنا الكيل، قلت له، وأنا أجدد كأسه، وانظر، وهنا فرقع ضحكه من بكائه، أنا مثلك وأكثر، لا أحد يحبني، إلا، أنطونيو كارلوس خوبيم أدخلنا في موسيقى «البوسا نوفا» وهو يغني Garota de Ipanema، فاستوحشت أن تكون لي طفلة، أسمِّيها باسم شاطئ إبنيما!

٢٠

تركت جان ميشال بين ذراعَي باتريسيا، خمَّنت ستأخذه لتواسيه في فراشها، وقفلت عائدًا إلى جحري، ما زلت أستدل الطريق. وبينا أنا على مفترق الطرق المؤدي إلى عمارتي انبثق من حولي، قدامي وخلفي، باقة من البنات، كل واحدة منهن تقول للقمر إما تضيء أو أضيء مكانك، ووسطهن الأنور، قد أحاطت عنقها بشريطٍ تدلى إلى خصرها مُوشًّى برسومٍ. تقدمت إليَّ ووضعت بين شفتيها كرزة، وقالت، إنني أودِّع عزوبتي، وقد وقع اختيارنا عليك لتقبرها، ستأكل الكرزة من شفتَي، هكذا حكمن عليَّ، وجذبتني إلى شفتيها، ثم جذبتني، والبنات يصفِّقن ويصخبن، صرن كلهن كرزات، وفي الصباح استيقظت في وحدتي، وأنا أتلمظ طعم الكرز!

باريس في ٠٥ / ٠٤ / ٢٠١١م

هنـــداوي